إدوار الخرّاط

ترابها زعفران

نصوص إسكندرانية

مختارات

ليست هذه النصوص سيرة ذاتية, ولا شيئًا قريبًا منها. ففيها من شَطْح الخيال, ومن صنعة الفنّ ما يشطّ بها كثيرًا عن ذلك.

فيها أوهامٌ -أحداث, ورؤى- شخوص, ونُوَيَّات من الوقائع هي أحلام, وسحابات من الذكريات التي كان ينبغي أن تقع ولكنها لم تحدث أبدًا.

لعلها أن تكون صيرورة, لا سيرة. وليست, فقط, ذاتية.

هي وَجْد, وفقدان, بالمدينة الرخامية, البيضاء -الزرقاء, التي ينسجها القلب باستمرار, ويطفو دائمًا على وجهها المُزبِد المضيء.

إسكندرية, يا إسكندرية, أنتِ لستِ, فقط, لؤلؤة العمر الصلبة في محارتها غير المفضوضة.

مع ذلك, أنشودتي إليكِ ليست إلاّ غمغمةً وهيْنمة.

إدوار الخرّاط

الموت على البحر

أرى الولد, صغير الجسم. ساقاه رفيعتان في الشورت الأبيض الواسع, وقميصه مفتوح. عيناه كأنّما فيهما نظرة متأملة, مبكرة كثيرًا عن سِنّه, وهو يقف في أول الصبح على حافة البحر الموحش, عند (المندرة) (شاطئ في الإسكندرية)**.**

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة, مشعّة ولا تكاد تترقرق, دسامةٌ بيضاء في الضوء الذي يكاد يكون شتويًّا, تنتهي برغوة شفافة تغوص في الرمل بوشيش خفيض, متكرر.

أُحِسُّ, عبر السنين الطويلة, بالنداوة اللينة تحت قدميه الحافيتين, والهواء المبلول على وجهه.

وأجد أن الشوق, مثل نزوع الموج, يرتمي على الشطّ ممدودَ اليدين, بلا تحقق, مثل اندفاع الماء, مُستَنْفَدًا بعد رحلة طويلة على ثَبَج العُمر, ينكص محسورًا أبدًا إلى عرض اليمّ العميق, ولا يفتأ يعلو وينحسر. حلمه

يأتي ويعود, لا يهدأ إلى راحة, وكأنه لم يترك خط النهاية المتعرِّج, لحظةً واحدة.

في تلك الساعة لم يكن هناك غيره على الشاطئ الواسع.

وعلى مسافة كبيرة داخل هذا الامتداد الساكن المتسايل تحت سماء خفيفة اللون, كنقطتين, أراهما, لا تكادان تتحركان, أعرف أنهما أبي وأمي وحدهما في البُعد الفسيح. وأريد أن يرجعا, بسرعة, إليّ.

يصل الموج الطفيف إلى قدميّ, ويترك غشاء فضّيًّا رقيقًا لا يكاد يجفّ, وهو يلمع, حتى يبتل من جديد بزبد يتقطع ويذوب.

في تلك السنة أجَّرْنا كابينة في مصيف أصدقاء الكتاب المقدس في (المندرة). وكان للمصيف سور منخفض من الطوب الأحمر حول أرض واسعة ناعمة الرمل. وكنت أحبّ أن ألعب تحت النخل العجوز العفيّ خشن الحراشيف, بين الكباين (مقاصير)**الخشبية المتناثرة من غير نظام, وأن أنظر إلى عناقيد البلح الأخضر المدوّر تقريبًا بغضارته الكثيفة تحت السَّعَف العريض وهو يهتز بأطرافه الشوكيّة المسنّنة على زرقة السماء التي تكاد تكون بيضاء. وكانت الفِراخ تجري وتنقّ وتلقط أكلها من الرمل تحت النخل وحول الكباين, ونُقفل الباب الخشبي في السور, عندما نجري وراءها, أنا وأمي, لنمسك واحدة, وتذبحها أمي بالسكين الحادة التي تومض في الشمس, وهي تقول: (كاك كاك إلهي يصبّرك على ما بلاك), ثم ترمي الفرخة على الرمل تصفّي دمها وهي تجري قليلاً ثم تسقط وأجنحتها تتخبط بجسمها.**

وكنت أعدّ الأيام, لأنني سأدخل المدرسة الثانوية بعد هذا المصيف مباشرة, وأفرح بكل يوم جديد. وكنت أستوحش مع ذلك إلى أخواتي البنات عايدة وهناء ولويزة التي كبرت الآن وتمشي في البيت على رجليها غير الثابتتين وتصرخ وتقول بضع كلمات. تركناهنّ في بيتنا في (غيط العنب) (أحد الأحياء)**مع جدتي أماليا وخالتي وديدة وخالتي سارة وأخوالي.**

وكان أبي يأخذ حمام الصبح مع أمي, مبكرًا جدًّا قبل القهوة, هو بالمايوه الأسود الطويل كالفانلة, وجسمه كالعود مشدود, وله عضلات جافة ونحيلة. وهي بالمايوه القماش, غامق الزرقة, مقفل تمامًا, له أكمام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل إلى الركبتين, وكانت قد فصّلته وخيّطته بنفسها على الماكينة (السِّنْجر) (نوع من آلات الخياطة) **القديمة الرفيعة البطن التي بهتت الكتابة الذهبية عليها, قليلاً.**

وأجري معهما, وأنا لما أكَد أصحو من النوم, بالشورت الأبيض والقميص الخفيف, نعبر الكورنيش اللامع السواد من أمام المصيف مباشرة. هواء البحر البارد بعد كِنّ الكابينة ودفئها يصدم وجهي, والسيارات قليلة جدًّا في هذه الساعة. وننزل إلى الرمل الواسع المتحدّر, وليس فيه ولا شمسية, وأقف على حافة الماء وأنتظرهما حتى يعودا من البحر, وعلى ذراعي الفُوَط الطويلة كثيفة الوَبرة.

وتخرج أمي من البحر, ناصعةً ومضيئة وناعمة, وشعرها القصير المقصوص مبلول يقطر بالماء. ويلحق بها أبي, قائم العود, ينظر إليها

بحب وطيبة, بعينيه الثاقبتين العميقتين في وجهه الحادّ العظام.
ويلتقّان بالفوَط, ونرجع جريًا إلى الكابينة.

وفي الدفء الذي يأتي من خشب الكابينة المغلق, يغيّران, ونقعد لنفطر على الطبلية المنخفضة, وبعد الفطور نتربع على الكليم الأسيوطي (نوع من البساط يصنع في مدينة أسيوط), ويصنع أبي قهوته السادة بنفسه, على السبرتاية (موقد يعمل بالكحول) الصغيرة بلهبها الأزرق يتراقص تحت الكنكة (إناء لطبخ القهوة), ويحكي لنا حكايات عن أيام شبابه عندما كان صرّافًا في الصعيد يطوف القرى حول (أخميم) على حماره الميري (الحكومي), ليجمع ضريبة الحكومة من الفلاحين. وكان يضع تحت لسانه فتفوتة مكوّرة لدنة القوام يكحتها بعود كبريت من عجين أسود لزج, في علبة صفيح مبططة صغيرة, ثم يذهب فيأخذ الأوتوبيس إلى شُغله ولا يعود إلاّ على العشاء.

وأكون أنا قد أكلت من زمان, وأكاد أسقط في النوم, ولكني أنتظره وجسمي هادئ وثقيل بهذا التعب الحلو الذي يأتي من اللعب والجري على البحر طول النهار, بينما هو يتعشى على الطبلية المحملة بالعيش البلدي الطازه ووِرْك الفرخة والجبنة الرومي والبيض المسلوق مقشرًا ومقطوعًا إلى شقين قد عصر عليهما الليمون, وهو يحكي مع أمي.

كان خالي ناثان يسوق الأوتوبيس الأخضر, بهيكله المربّع, على الكورنيش بين أول (سيدي بشر) (أحد الشواطئ في الإسكندرية) و(المندرة). وكنت بعد الفطور مباشرة ألبس المايوه الضيق الذي يحبك عليّ وقد صنعته لي خالتي وديدة من الصوف التريكو الأحمر, تحت الشورت القطيفة الأسود الذي بحمالات فيها زراير بيضاء كبيرة, وأدس تحته القميص الحرير الياباني, وأخرج جريًا من الكابينة وأمي تقول لي خلِّ بالك من الأوتومبيلات وأنتَ بتعدّي (تعبر) بُصّ يمين وشمال, وهي مشغولة أمام وابور الجاز تطبخ للغداء, في الكابينة المعتمة قليلاً.

وأعبر الكورنيش, بعد أن أنتظر, واجِفَ القلب, حتى يخلو من السيارات القليلة, وأثبُ إلى رصيف البحر, وأمشي قليلاً إلى محطة الأوتوبيس. فإذا جاء وقف لي حتى ولو لم يكن في المحطة غيري, فأصعد الدرجة الحديدية التي كنت أجدها عالية قليلاً, ويشير إليّ خالي ناثان بوجهه الصغير الأسمر المدوّر وعينيه الضيقتين الحانيتين اللتين يمتلئ الجلد حولهما بالتجاعيد عندما يبتسم, وأجلس بجانبه على كرسي صغير ليس له ظهر. وكان هذا الحيّز الضيق بجانب الباب في مقدمة السيارة الكبيرة, دائمًا, دافئًا بسخونة المحرّك وفيه رائحة بنزين, وتسحرني شارات منصّة القيادة المسطحة وعقاربها الصغيرة المضيئة بنور أحمر.

وفي أول (سيدي بشر) يقف لي خالي, من غير محطة, فأنزل, وأعبر الكورنيش مرة أخرى, متلفتًا عن يمين وعن يسار, وأذهب إلى (لوكاندة (فندق) رانة) حيث ينزل (بقطر) ابن عمتي, كل سنة. وحتى بعد أن أجّر أخوه, رفلة أفندي, كابينة في المندرة قريبة جدًّا من مصيف (أصدقاء الكتاب المقدس), استمر (بقطر) ابن عمتي ينزل في هذه اللوكاندة. ولم تكن أمهما عمتي تمامًا, بل بنت عم أبي, وكانا يناديان أبي يا خال, ويقولان لأمي يامرة خالي, وكانت هذه القرابة تحيرني وتغويني.

وكان (بقطر) ابن عمتي يأتي من أخميم يقضي شهر سبتمبر كل سنة في (سيدي بشر), بعد جمع محصول البصل وتشوينه (تخزينه) , وكان في

عنفوانه, لم يتزوج بعد, طويلاً فارعًا, داكن السمرة في وجهه المستقيم الخطوط وسامة رجولية كاملة, وله ضحكة بصوت أجش متملك.

وعندما أدخل من باب اللوكاندة أحس على الفور بنَفْح البلل والعتمة الهادئة بعد نور البحر الصافي. الأرض المبلطة, من غير سجاد, رطبة وعليها ماء قليل, وفي المدخل كله رائحة عامة وحميمة في الوقت نفسه. وكانت صاحبة اللوكاندة, مدورة الوجه, رائقة السمرة, ممتلئة قليلاً, تجلس وراء المنصة الدائرية في المدخل, وعندما تراني أدخل ترحب بي بصوت ناعم أحسه يدغدغ فيّ اهتزازًا داخليًا: أهلاً (يا غَنّنْ) (صغير) **يا حبيبي, تعالَ, تعالَ عندي هيّ الرجالة برضو ينكسفوا؟ وتعزم عليّ بالشيكولاتة, دائمًا, كل مرة, فأرفض, وأتأبّى, دائمًا, كل مرة حتى تغريني بأن آخذها, بصوتها هذا الدسِم الكسول, وهي تجذبني قليلاً إليها, وتضع ذراعها الرخْصة العارية على كتفي وتضمني, قليلاً, إليها, وتنظر إليّ, من فوق, بعينيها الواسعتين اللتين تهتز خضرتهما الداكنة وتسيل بحنو أنثوي يملأ قلبي.**

ثم تقول فجأة: اطلع بقى قريبك مستنيك فوق, والاّ عايزنا نطلعوا معاك؟ فأهز رأسي وأجري أصعد السلالم إلى غرفة (بقطر) ابن عمتي في الدور الثالث.

وعندما أطرق باب غرفته, وأدخل دون أن أنتظر الإذن, أجده ينتظرني, عادة, وقد لبس المايوه الفانلة الطويل الذي يشبه مايوه أبي, بحمالات عريضة وفتحة عالية تصل إلى تحت الرقبة بقليل, فيضع البُرنُس (رداء للتنشف بعد الحمام) **المخطط على كتفيه, ويأخذ فوطة معه وننزل معًا. وعندما نعبر الردهة, أمام صاحبة اللوكاندة, كان وجهه فيه, دائمًا, نظرة غائبة متحفظة, وكانت هي لا تنظر إليَّ ولا تحييني.**

ويمسك بيدي لنعبر الكورنيش, وننزل السلالم القليلة, ونسير حتى البقعة الفسيحة عند شاطئ الطاحونة. أخلع الشورت والقميص وأرميهما, مع الفوطة والبرنس على الرمل, وألعب عند حافة البحر حتى يصل الماء إلى أعلى صدري ولا أدخل كثيرًا. وكان ابن عمتي (بقطر) هو الوحيد الذي أحس الأمان معه في البحر. كان يسبح إلى الداخل ثم يعود إليّ, يتوغل في البحر من جديد ويعود, وكنت ألعب وحدي, بينما هو في البحر, على الرمل المبلل الذي يخبطه الموج وينحسر عنه, أصنع قوالب من الرمل الطري المتماسك, مصنوعة في علبة كبريت فارغة, وأحفر حفرة ضيقة أجهد في تعميقها حتى يملأها الماء. يخرج أخيرًا, شامخ الطول, يسيل الماء على جسمه, فيتلفّفُ بالبُرنُس وأجفف نفسي بفوطته السميكة التي سخنت الآن, وألبس. ويذهب هو إلى اللوكاندة, أما أنا فأسير إلى المحطة, حتى يأتي أوتوبيس خالي ناثان, فأعود معه وأنا خفيف الخطو متوهج الجسم من الشمس والبحر واللعب في الماء والرمل.

(...)

ما زلت أرى الولد يذهب إلى فراشه غير المألوف في كابينة المندرة, مرْتَبة مفرودة على الأرض ومغطاة بملاءة سرير, ويغوص تحت الكُبِرتاية (غطاء خفيف للنائم) **القطنية البيضاء المشغولة بنقوش أزهار وأوراق مطبوعة من نفس القماش ونفس اللون, بارزة وغائرة فيه, تعطيه**

دغدغة مترفة للجسم, وأعرف معه فرحة المنقضى بيومه على البحر, وترسبات اليوم في قلبه, وخوفه من مفازع الليل وأحلامه المضطربة.

هل كان خاله ناثان أم خاله يونان هو الذي كان قد حكي عن صدقي باشا (رئيس وزراء أسبق)**والعمال في عنابر السكة الحديد؟ أم هو الذي كان قد قرأ عن الحكاية عندما دخل تحت سرير خاله يونان وزوجة خاله إستر التي كان يحبها, في بيتهم في (غيط العنب). وكان السرير عاليًا وفرشه جديدا, وعليه ملاءة من الساتان الأخضر تتدلى على أطرافه, وكان هو يحب أن يغوص هناك في العتمة الخفيفة بنور أخضر فاتح يشمّ رائحة الورق والتراب وبقية متطايرة من عطر نسائي يعرفه عند امرأة خاله إستر, ويقلب في الصحف والمجلات القديمة المرصوصة تحت السرير: (الأهرام) و(البلاغ) و(مصر) و(الصرخة) و(الجهاد)** (صحف)**, ويقضي ساعات في عزلة عن صخب البيت وأصواته واحتشاده.**

ورأى أنه في محطة (باب الحديد) (محطة سكة الحديد الرئيسية في الاسكندرية) **الخالية تمامًا في الليل, والأرصفة القوية العالية تمتد عريضة وليس عليها أحد وليس عليها قطارات, والسقف الزجاجي بعيد جدًّا فوقه وتنعكس عليه, من تحت, أنوار الأعمدة الطويلة.**

ورأى أن القطارات واقفة في خارج المحطة, متراصة صفوفًا في ظلام الساحة المغطاة بالقضبان المتعرجة, متربصة. صدور القاطرات أقراص سوداء كاملة الاستدارة منبعجة قليلاً إلى الأمام وكأنها تهم بأن تنبعث فجأة من جمودها, بالحياة والبخار والهجوم, لتدخل المحطة, في أي لحظة الآن, تداهم, وتسحق كل ما أمامها. ورأى نفسه معهم في الجانب الآخر من المحطة, المفتوح على شبكة القضبان الواسعة, وكانوا كثيرين جدًّا, متزاحمين بالأكتاف والرؤوس. ولمح في وسط الوجوه المتعاقبة التي تظهر وتختفي في عتمة الليل الصافية وجوه بقطر ابن عمته ورفله أفندي وخاله ناثان وخاله يونان وخاله سوريال وجده ساويرس. ولم يدهش عندما رأى بينهم أخته عايدة التي تصغره بسنتين تحمل أخته لويزة الصغيرة على ذراعيها في وسط زحمة سواقي القطارات والعطشجية (مساعدو سائقي القطارات) **وعمال الصيانة والكمسارية** (محصلو القطار) **ببدلهم الصفراء الداكنة, وفي أيديهم عصي حديدية رفيعة طويلة, وعِدَد قَطْع التذاكر المعدنية ومقراض التذاكر البشع الشكل, وهم يتحركون ببطء, محتشدين تحت السماء المفتوحة.**

ورأى بينهم, لحظة واحدة ثم اختفت, رانة صاحبة اللوكاندة, وخيل إليه في لمحة واحدة أنها ترتدي المايوه القماش الأزرق المكشكش الأكمام عند أعلى ذراعيها (...) وساقاها السمراوان تلمعان بندى عرق خفيف, وكان يعرف أنها لا يمكن أن تكون هناك, وأنها ماتت, بغموض وفي قلب شيءٍ ما قابض ولكنه لم يصدق ذلك. وأحس لها الولد بخجل مكتوم معتصر اكتسحه ثم مضى كأنه لم يوجد. ثم ضاعت منه وسط زحام حشد الناس وكأنه لم يرها قط, وكان يعرف أنها ليست هناك. وكان الناس يلوحون بأيديهم وأذرعهم ويفتحون أفواههم صارخين من غير صوت. وكان معهم, يحس أن موجهم يحمله ويرتمي به برفق, يصعد به ويهبط بنعومة من غير صدمة. ووجد أن الأرصفة قد امتلأت بجنود بُلُوك النظام (فرق الشرطة المخصصة لقم الاضطرابات) **بالشورت الكاكي والياي** (شريط تلف به ساق الجندي) **الداكن تلتف شرائطه حول سيقانهم. على صدورهم أحزمة جلدية عريضة متقاطعة وعلى طرابيشهم أغطية قماش صفراء لها ياقة متدلية على مؤخرة رؤوسهم. وفي أيديهم خراطيم الماء**

القوية، تتلوى، حراشيفها الجلدية شريرة، كثيفة الأضلاع. وتزحف الخراطيم على الأرصفة، من تلقائها، ثم تنتصب بفوهاتها الحديدية المسدّدة إليهم، وتندفع منها أعمدة الماء المغلي يفور وله وشيش وبخار أبيض يتطاير في دوائر كثيفة تدور وتصعد من فوق انصباب الماء المرغّي.

وعلى صرخة يقظته المروعة جاءت أمه حافية، تجري إليه، من على السرير العالي في الجانب الآخر من الكابينة.

نزل أبي إلى شُغْلِه في شارع (أنسطاسي) في (مينا البصل)، وقالت لي أمي إننا سنتغدى يومها في كابينة رفلة أفندي.

وعلى العكس من ابن عمتي بقطر كان أخوه رفلة أفندي مدور الوجه أبيض البشرة وناعمًا قليلاً. وكانت له عينان جاحظتان شيئًا ما، تتألّقان بالمرح، وسريع النكتة متدفقًا بالكلام. وله شارب مشذب ينزل من تحت أنفه بين خطين مستقيمين عموديين كشارب هتلر الذي تظهر صوره في (اللطائف المصورة) (مجلة مصورة)**.**

وقضى رفلة أفندي سنوات طويلة مدرسًا للجبر والهندسة في المرقسية الثانوية. وكان أعزب وله شقة في محرم بك. وكان يعزف على العود. وعندما كان يزورنا على العشاء في بيتنا في (غيط العنب) كنت أسهر معهم على المائدة الطويلة الحافلة، قرصها الرخامي البني المجزَّع مغطى بمفرش أبيض سميك ومكوى ومحمل بالأطايب التي كانت أمي تعدّها. تذبح بطة أو وزة وتصنع الكسكسي الذي نأكله بالمرق، وتطبخ ملوخية، وطاجن أرز معمر، بالحمام، والرقاق الهش الذي تسقسقه بالسمن البلدي وتحمره في الفرن، رقائقه الناعمه المحمصة من فوق واللدنة اللحمية من تحت لها طعم لا أنساه، وتكون ليلتها كأنها ليلة عيد، يأكلون ويشربون ويحكون حكايات كثيرة وشائقة جدًّا، وأمي تعزم عليه بالطعام، دون توقف: خد دي من إيدي وحياة خالك، ما تكسفش إيدي امّال، فيرد: تِسْلم إيدك يامرة خالي، يابوي، لا يمكن، وحياة المسيح. وبعد قليل تخلع نسيرة وافرة من البطة وتعزم من جديد: تُقبرني ما أنت واخد دي، هو أنت كلت حاجة؟ فيقول وهو يرد يدها برفق: قبر ياخد العِدا يا مرة خالي والله ما اقدَر.

وينتهي بأن يأخذها، وهكذا طول العشاء، وكانت لهجته إسكندرانية وفيها نغمة صعيدية خفيفة ومرحة. وكان رفلة أفندي يأتي لي كل مرة بعلب التوفي (حلوى للأطفال) **المدورة المرسوم عليها صور أبراج وكباري ملونة عرفت فيما بعد أنها صورة برج لندن، أو برطمان كراملّه (نادلر)** (حلوى للأطفال) **المربع، بزجاجه الشفاف السميك وفوّهته الدائرية الواسعة. وأظل معهم من الفرح بالسهر والحكايات والأكل والشرب حتى أقع في النوم وأنا لا أريد الذهاب إلى السرير، ولا أذكر في اليوم التالي متى ولا كيف نمت.**

وكانت كبائن (المندرة) أيامها تقع على مرتفعات صغيرة متراوحة من الرمل أمام الكورنيش، متناثرة ومتباعدة من غير نظام وبينها مساحات عذراء فيها نخل. والكباين على أشكال جميلة وغريبة ومتعددة، جدرانها الخشبية تنتهي بأبراج صغيرة جدًّا وأنيقة من الخشب أيضًا على الأركان الأربعة، ونوافذها الصغيرة لها زجاج ملون ومنمنم من ألواح دقيقة ناعمة أو محببة زرقاء ناصعة وحمراء متقدة وخضراء يانعة وصفراء مُزهِرة،

ويصعد المرء إليها على سلالم خشبية أيضًا. وللكباين الكبيرة شرفات مكشوفة تحيط بها أعمدة متتالية رشيقة, وتتأرجح تحت القدمين.

وكانت كابينة رفلة أفندي تطل على الكورنيش مباشرة, من على ربوة رملية صغيرة الارتفاع, منبسطة. هل كنا قد تغدينا عنده بالفعل, ونزلت أمي إلى البحر في آخر العصر بعد أن خلا الشاطئ تمامًا, وعادت وذهبت إلى الغرفة الداخلية الوحيدة لتسرّح شعرها وتلبس؟ أم كانت ما تزال في البحر, بعد أن خرج منه الناس, وأوشك النور أن يذهب, تأخذ, وحدها في الماء, حمام الغروب؟

كان رفلة أفندي يجلس على كرسي خيزران, بالقميص والبنطلون, وهو منحنٍ بصدره على العود المستند إلى بطنه المنبعج قليلاً, يده البيضاء المرفهة الأصابع تهتز بالريشة على الأوتار هزات خفيفة موَقَّعة, وأنا أمامه أجلس على كرسي خشبي مدور من غير ظهر, وأرى أرضية الكابينة الخشبية عليها آثار أقدام مبلولة لأنها أكثر دكنة من لون الخشب حولها, وكان يدندن: (الليل لما خلي.. والساهر.. الباكي...) وفي صوته وعزفه شجن, وعيناه غائبتان.

كان قرص الشمس أحمر, كبيرًا, أراه ينزل بسرعة, كأن الشمس الحقيقية البيضاء الملتهبة قد غابت من زمان, وهذا انعكاسها المتقد, وهميًّا, يغوص في البحر وسط سحاب متقطع مشتعل الأذيال بنار داكنة, ومجد الغروب ينطفئ قليلاً قليلاً. وتهب عليَّ أنفاسُ وحشةٍ باردة, كأنه آخر مغيب في آخر يوم. الشمس تركت العالم ولن تعود, ونحن ندخل ليلة القيامة الأخيرة.

وفي الكابينة المفتوحة دفء من سخونة خشبها الذي صهدته الشمس طول النهار. عتمة المغيب, وإيقاعات العود لها رنين شجي ومجوف ومتلاحق الرعشات, وقد صمت رفله أفندي واستغرق في العزف. انحنى برأسه إلى جانب يصغي إلى شكاة الأوتار المرتعدة بصدمات موسيقى رتيبة, ملحة, لها صدى في حيز الكابينة الخشبي الضيق.

كنت أحس نفسي وحيدًا جدًّا, وهواء البحر يأتي على وجهي حارًّا ثم رطبًا على التعاقب, مرة بعد مرة, ومحملاً برائحة الماء المِلحيّة. وأضاءت أعمدة النور على الكورنيش, معًا مرة واحدة, بقعًا مستديرة بصفرة وهاجة إزاء نسيج السماء الداكن الزرقة الذي ما زال في طرفه احتراق الغروب, يسود بالتدريج, ونور المصابيح المهتز يقع على أسفلت الكورنيش وعلى ظهور السيارات اللامعة التي تمرق بصمت وسرعة, متباعدة وقليلة, لتختفي في انعطاف الطريق, عند الكازينو البعيد.

وأمام الكابينة مباشرة التفتُّ فجأة فرأيت جسمها يدور تحت عجلات السيارة, أمامي, ناعمًا و لدنًا بدون مقاومة, فستانها يطير ويتقلب تحت السيارة, والذراعان تهتزان, والجسم يلتف مع العجلات, مرة ومرتين.

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامي نفسها.

وسمعت صرخة ثاقبة في سكون الغروب.

انخلع قلبي برعب خاطف, هل هذه أمي تحت العجلات? كانت آتية إلينا من البحر واصطدمت بها السيارة? كان الروع في قلبي ساطعًا, لحظة واحدة.

الغياب النهائي. الفقدان الكامل.

خرجت أمي من الغرفة الداخلية, هادئة, شعرها القصير مسرّح وما زال مبلولاً قليلاً على وجهها الذي يشع في عتمة الكابينة, أبيض.

وأحسست ساقي ترتعدان, خاويتين.

لم أتحرك. ولم أقل كلمة واحدة.

كانت الكابينة صامتة تمامًا, والعود وحده على الكرسي الخيزران.

رأيت السيارة تبطئ, بعد أن مرت على الفتاة المرمية على الأسفلت, ساقاها الضامرتان مكشوفتان للهواء, هامدتان, ملويتان إلى جانبها في وضع لا يصدق. ورأيت, من بعيد شعرها مفروشًا على أرض الشارع, تحت النور, هبّ الهواء فارتفعت خصلة منه تهتز.

وكان الناس يجرون إليها, وأدركت أن رفلة أفندي قد انطلق إلى مكان الحادث, ووقفت أمي على الباب, صامتة, مفتوحة العينين.

لم يتزوج رفلة أفندي إلاّ عندما كبر جدًّا, ونقل مفتشًا ثم ناظرًا في سوهاج الثانوية بعد أن أخذت الابتدائية بسنتين, ولم يخلف, ومات بعد أن حصلت على البكالوريوس, وكنت عندئذ في معتقل (الطور), وحرب 1948 قد انتهت بضياع فلسطين, وكأنما كتمت مشاعر غامضة كثيرة, فلم أفكر فيه.

في ذلك الصباح انتظرت خالي ناثان كالمعتاد, ولكنه عندما وقف بالأوتوبيس, نظر إليّ من فوق مقعده نظرةً غريبة ونهض, على غير عادته, وجاء إلى الباب قبل أن أصعد وقال لي: بلاش النهاردة. خليك.. العب هنا أحسن. وأحسست توجسًا وقلقًا مستأثرًا فلم أرد عليه, وفعلت ما لا أفعل إلاّ نادرًا, صعدت بصمت وتصميم, وجلست على مقعدي الصغير.

وفهم خالي ناثان أنني في نوبة من نوبات عنادي التي لا يفلح معي فيها شيء, لا أمر ولا رجاء ولا تهديد ولا محايلة. وعاد إلى مقعده وخيّل إليّ أن التجاعيد حول عينيه الصغيرتين قد عمقت وازدادت.

وعندما اقتربنا من اللوكاندة قال لي: (طب بلاش تنزل, ألفّ, وترجع معاي, أخدك لغاية (المنتزه), ونروح الكازينو بعد الظهر. ولم يقف, لكنني في المحطة التالية كنت على الباب بالفعل, وقفزت إلى الشارع مع الناس, وجريت راجعًا, وعبرت الكورنيش دون انتظار من بين السيارات المسرعة التي ارتفع نفيرها الموحش وخَفَت في أذني, وأنا أمرق من بينها.

كان يقف على مقربة من الباب جمع صغير من البوابين والمكوجية (الكواؤون) **والبياعين والفضوليين القلائل, يتهامسون ويتحدثون بصوت**

خفيض, وسمعتهم يقولون وأنا أشق طريقي بجانبهم على الرصيف: إمتى? حدّ عرف مين? بيقولو على وش الفجر.. خسارة.. والله ست فنجرية (كريمة ومسرفة) وبنت حلال.. ما هي كانت برضو.. الله يرحمها بقى.. ما احنا بكره هنعرفوا.. مسير المستخبي يبان.. ربنا على الظالم يا جدع.. وكان على باب اللوكاندة عسكري في بدلته البيضاء غير المكوية وطربوشه, وفي يده بندقية ومعه مخبر, بالبالطو الميري (المعطف الحكومي) والجلابية والعصا الخيزران, قال لي بخشونة: رايح فين يا ولد? فأزحته بيدي, بقوة لم أكن أعرف أنها عندي, دون أن أرد ولا أنظر إليه, فلا شك أن ما رآه في وجهي جعله يسكت ولا يفعل شيئًا.

صعدت السلالم جريًا, وفي الدور الثالث رأيت بابًا مفتوحًا بالقرب من غرفة ابن عمتي بقطر, وعرفت أنه باب غرفتها, واندفعت إليه, ورأيت ضابطًا بنجمة وتاج يقف في الغرفة مع اثنين مخبرين, وكانت الغرفة مزدحمة بهم, وكان ابن عمتي بقطر يقف معه, مهيب الطول صارم الوجه, أنيقًا في البالطو الصعيدي الجبردين (نوع من القماش) الخفيف على جلابية سكروتة (نوع من القماش)ناصعة تنزل حتى حذائه البني اللامع كالمرآة, وطربوشه محكم ومضبوط تمامًا على رأسه. وأحسست أنه يتفجر, في هذه اللحظة بالذات, بشباب عارم مكتوم.

وعندما اندفعت إلى الداخل من بينهم جميعًا, وقبل أن يمسكني أحد, رأيتها على السرير. كانت مغطاة بملاءة بيضاء, عليها بقع الدم, داكنة, ترشح ببطء وتتسع في مواقع مختلفة عند الصدر والبطن, ورأسها ملقى إلى الوراء من غير مخدة. سمرة وجهها شاحبة ولكن عينيها الواسعتين, تحت الجفنين المدورين, مفتوحتان, اخضرارهما الآن ثابت لا يتموج, وكانت تنظر إليّ.

أخذني ابن عمتي بقطر, من يدي, ببطء ودون تعجل, وقال لي: تعال معاي دلوقيتي ياود خالي. تعالى. ما عادش فيه فايدة من الوقفة دي يا خال. وكانت أول مرة يناديني كما ينادي أبي, وكما يتحدث الرجل إلى الرجل. واهتز صوته الراسخ العميق قليلاً. ولم أبكِ, يومها, أيضًا.

واستمر بقطر ابن عمتي يأتي إلى (لوكاندة رانة) كل مصيف, لم يغير عادته, واحتفظ باعتدال قامته الشامخة, وصرامة وجهه, وشباب نظرته الثاقبة, بعد أن تزوج من الصعيد وخلّف. ومات بعد أخيه رفلة أفندي بقليل, وكنت قد انتقلت من معتقل (الطور) إلى معتقل (أبو قير), مرة أخرى, ولم أعرف إلا بعد أن خرجت وحزنت عليه حزنًا صامتًا طويلاً, وكنت أمر, أيامها, بغمرات حب ظننت أنه ميئوس منه, وكنت يائسًا من العالم.

وكنت أذهب, في مضض هذا الحب الذي لم أكن أعرف كيف أحتمله ولا أعرف كيف ينتهي, إلى كازينو كليوباترا, وأقضي ساعات بعد الظهر المبكر أنظر إلى البحر, وأحلم أحلامًا مضطربة, أحاول أن أقرأ رواية, أو أنتظر صديقًا قبل ميعاده بكثير, أو أقرر, خلال ساعات, هل أذهب إلى سينما, أي سينما, أم إلى قهوة (الفريسكادور) أو (باستوريدس) في شارع سعد زغلول, أو (سان جيوفاني) في (ستانلي), لمجرد أنني لا أطيق البقاء بين أربعة حيطان وحدي.

كنا في أواخر سبتمبر, وشمس بعد الظهر تصنع على صفحة البحر, تحتي, ملايين النقط اللامعة التي تبرق وتختفي وتعشي عينيّ, وزرقة

الماء تحتها عميقة وداكنة وكثيفة الشفافية في الوقت نفسه, فأمد بصري من نافذة الكازينو العالية المفتوحة إلى الأفق الغامض في اتصاله بخط السماء المهتز بالضوء, عندما رأيتها.

كانت تسبح تحت النافذة, بالمايوه الأزرق الفاتح, محبوكًا عليها, لامعًا تحت سيولة الموج الخفيف الذي يترقرق عليه وينحسر في حركتها الناعمة, ذراعاها لا تكادان تصنعان رغوة في انزلاقها المنساب على الماء. وعرفتها.

رانة التي كنت نسيت كل شيء عنها. جسمها فاتح السمرة وغض ولما يكُد يكتنز بأنوثته التي تتفتح وتزدهر, في أول امتلائها الباكر, ولكنها أصغر سنًّا بكثير, فتاة بعد, ولها رشاقة سمكة في الماء.

خفق قلبي, وتوقف. من هي؟ هل هي أخت لها, صغيرة, لم أرها من قبل؟ كنت موقنًا أنها هي, هي. أم هي الأخرى التي سوف أعشقها, وأفقدها.

تعلقت عيناي بها, مسحورًا وغائبًا, وعندما انقلبت على ظهرها, تطفو فوق الماء, رأيت وجهها المدور الخمري, مغمض العينين تحت الشمس, طافيًا إليّ, وكان شعرها الخشن الوحف قصيرًا حول رأسها, مبلولاً وداكن السواد, أعرف حرافة عبقه المسْكِر. وخداها الأسيلان يومضان في استدارة رخيمة كاملة تحت الماء, وهي تبتعد, ساقاها, في بضاضتهما المخروطة العبلة, لا تكادان تتحركان, وذراعاها تضربان الماء بحركة خلفية منتظمة إيقاعها هادئ, وهي تبتعد. وعرفت أنني سأحبها, في آخر العمر, حبًّا كأنه الموت, وأن قلبي هو ساحة بحرها اللجيّ الجيّاش أبدًا بأمواج لا هدوء لها

فُلْك طافٍ على طُوفان الجسد

أنزل للمدرسة في الثامنة إلاّ عشر دقائق, على الساعة.

ساعة الحائط معلقة جنب الباب. البندول النحاسي الطويل ينتهي بقرص مدوّر, مليء, صفرته وهّاجة ومُغوية, يتأرجح, ذاهبًا آتيًا بإصرار كأن فيه نَزَقًا وخفّة, في بطن الصندوق الخشبي المستطيل, بجسمه البُنّي الداكن اللامع الدسامة, على حوافّه الأربعة كورنيش مشغول بتفريعات ناعمة اللّفْلفَة, بضّة الخشب, تدور بعضها على بعض متداخلة ومتنزّية ومتقلبة, وعلى الحافة العلوية تموّجٌ مقبّب يقف عليه فارس خشبي رقيق النحت, له خوذة ينزل من تحتها شعره الطويل المنمنم المتجعّدُ الخُصَل, وله لحية مخروطة, وعباءته يتطاير بها الهواء المحبوس, وهو يشبّ على حصانه الصافن الذي يرفع إحدى ساقيه الأماميتين, مثنيّة برشاقةٍ ثابتة, طرف الحافر المنصوب لا يكاد يمسّ الأرض.

فطُوري, دائمًا, تَسْقِيَّة بالشاي واللبن, فقط. تفِتّ أمي وجه الخبز الناشف الرقيق, فقد كنت لا أحب بطن الرغيف الخشن المحبّب بالردة, وتُغرقُه بالشاي واللبن حتى يتشربه, ويلين, ولكنه لا يتعجّن, فآكله

بالملعقة الفضية الخاصة بي وحدي, عليها نقش تاج صغير واسم لا أنساه: محمد محمود غالي وأولاده, بالخط النسخ الدقيق التدوير وقد اسودّ وسط لمعان الفضة الثقيلة, أرفع بها الخبز المسقيَّ بالشاي واللبن فأجده سائغ السخونة, سهل البلع وأنا لا أرفع عيني عن الساعة, والعقرب الطويل يقفز من علامةٍ إلى علامة, كل دقيقة, حتى يصل إلى الخط الذي أعرف عنده أنني يجب أن أترك كل شيء, وأخطف كتبي من على رخامة البُوريه, وأجري.

كل يوم أحد, قبل أن نذهب للكنيسة, أترجّى أمي أن تتركني أملأ الساعة. آخذ مفتاحها الذي له تجويف دائري دقيق في ساقه, من مكانه على أرضية الصندوق الداخلية أحسّ الغبار الدقيق عليها بأصابعي, وأطلع على كرسي خيزران, وأولج خُرم المفتاح الطويل فيلفّ بإحكامٍ وثيق حول سنٍّ كالإبرة تبرز من فجوةٍ دائرية في منتصف وجه الساعة بمينائه البيضاء الساطعة, وأدير المفتاح وأنا أمسك برأسه المفلطح ذي الورقتين النحاسيّتين الدقيقتين بين الإبهام والسبابة, فتصرُّ التروس الداخلية, بمتعة, وهي تمتلئ, وتكتسبُ الدقاتِ المنتظمة الواضحة, أقوى صوتًا وأكثر تجسّدًا. وكانت تدقّ, كل ساعة, بصلصلةِ النواقيس.

تركنا البيت الذي في شارع 12 أمام وابور الدقيق (مطحن الدقيق)**, بالقرب من الكركون** (مركز للشرطة)**, عندما دخلت مدرسة النيل الإبتدائية من أربع سنين, وانتقلنا إلى بيت شارع الكروم أمام الإصطبل** (حظيرة الخيل) **, قريبًا من ترعة** (مجرى مائي متفرع من نهر النيل) **المحمودية, مخصوص لأن المدرسة كانت في الشارع نفسه, أصل اليها بعد خمس دقائق مشيًا, أو جريًا في دقيقتين, أعبر تقاطع شارع سيدي كريّم, ثم شارع الترامواي, فأجد المدرسة على قمة الشارع التالي, على طول.**

للمدرسة سورٌ عال, من الحجر, على شارع الكروم, لا يفتح إلاّ على باب خشبي ثقيل يفضي مباشرة إلى سلالم ضيقة, معتمة ونظيفة جدًّا, بين حائطين مُصْمَتَين, لا يدخل منه إلاّ الناظر والمدرّسون, لم أصعد عليه, ولم أعرف رهبته, إلاّ مع أبي, وهو يمسك بيدي, عندما جاء ليقدّم لي في المدرسة أول مرة, من زمان, وعندما ذهبت لآخذ الشهادة من مكتب الناظر في آخر تلك السنة.

أما نحن فندخل من الباب الواسع الكبير على شارع المعارف, من الناحية الثانية. يقف عليه عم ميساك البواب العجوز المشقق الوجه, بشاربه المتهدّل وعِمّته القماش الملفوفة على اللبدة (غطاء رأس من أقمشة مطبوخة) **الحائلة اللون, هو الذي يفتحه ويغلقه, ويقرر مصائرنا في الدخول والخروج, والحصص والفُسْحة, إذ يضرب الجرس النحاسي الصدئ المعلّق جنب الباب, على ساعته الفضية المكتنزة, المضبوطة بالثانية, مربوطة, في جيب جلابيّته الجانبي العميق, بكاتينة** (سلسلة معدنية) **معقودة بالزرار العلوي في صديريته التي يبدو قماشها اللامع, ضيقًا حول صدره النحيل, من فتحة الجلابيّة العلوية.**

وللباب ضلفتان حديديتان مسدودتان, بين قائمين من الحجر العريض, ويفتح على مدخل مبلّط صغير تصعد منه سلالمُ عريضةٌ رخامية بيضاء لها, من الجانبين, درابزين (حاجز على جانب الدرج) **حجري, كالبلكونات, ويؤدي إلى ردهة تقع الفصول على جانبيها. وعلى مستوى الدور الثاني يبرز من فوق السلالم, ويُظلّلها, بناءُ المدرسة المرتفع, المضلّع, بالحجر**

القديم الكبير, والزخارف الحجرية الطويلة, وفيه النوافذ العالية الواسعة بضلفها الخشبية الثقيلة.

اندفعت جريًا من جنب عم ميساك إلى الحوش الصغير, إلى يمين السلالم الرخامية, حيث كان يقف (الكبار) الذين يلبسون البنطلونات الطويلة والبدل الكاملة, والطرابيش والكرافتات.

وقلت صباح الخير لغُريِّب عَلِي, فرد عليّ وهو مستند بجنبه إلى السور, طربوشة مَعْوُوج على زاوية أنيقة من جبهته, وجاكتته مزرّرة, فهي دائمًا محبوكة عليه, لا يفتحها أبدًا, ووجهه طويل فيه نظرة حالمة شيئًا ما, مترفعة شيئًا ما. وردّ عليّ أيضًا حسن المرديني, بخدّيْه المدورين وعينيه الدسمتين, وسليمان بطرس, الصعيدي الوسيم, لونه بني محروق..

لعل الكبار كانوا في السادسة عشرة أو بعدها, ونحن, أوائل الفصل, صغار في السن عنهم, في العاشرة أو نحوها, وكلنا شَيْطنة, ولكننا كنّا, بمعنى ما, أندادًا لهم, بميزة التفوق التي تجعلهم يحترموننا, وتتيح لنا أن ننضم على قدم المساواة إلى جماعتهم في الحوش الصغير, نتبادل السندوتشات, والتُّوفّي, رأسًا برأس, حتى لو كانوا هم - كما هو واضح - أولاد عِزّ وآباؤهم أغنياء, بينما كنّا على قدّ الحال, مستورين, وما زلنا نلبس الشورت والقميص المفتوح الرقبة والشراب القصير المتهدل على رقبة الجزمة. ولكن الطربوش كان إجباريًّا, علينا نحن أيضًا, نلبسه في الفصل وفي الفُسحة, وفي الشارع.

ومع ذلك فقد كنا نعرف, بغموض, أننا لسنا أندادًا لهم, تمامًا. كانوا كبارًا, وكانت لهم معرفة بأسرار الجسم التي تحدث للواحد عندما يكون كبيرًا, ولا نملكها بعد. ولهذا, وحده, كنا نكنّ لهم إعجابًا خفيًّا, واحترامًا من نوع خاص, حتى لو كانوا في آخر ترتيب الفصل. وكانت لهم مرات, في صباح الاثنين خصوصًا, يتحلقون معًا, الكبار وحدهم, ويتحدثون بهمس منفعل ويتبادلون أسرارًا لا يسمحون لنا بأن نسمعها.

ضرب الجرس, واندفعنا نجري على السلالم الرخام, ودخلنا حصة العربي. كان خليفة أفندي يتكلم بلهجة فلّاحي قليلاً, ويُعطّش الجيم دائمًا, وله شارب كث كشريط مستقيم الحواف تحت أنفه, وعظم وجهه غائر وجافّ. وكنت في أول صفّ, وطلب مني خليفة أفندي أن أسمّع المحفوظات. كانت سورة الليل وسورة الضحى مقررتين علينا في المحفوظات, وكنت حسن الحفظ, فتلوتهما, واحدةً بعد الأخرى, مسحورًا بالإيقاع والمعاني, وحَلَّ في الفصل كله سكونٌ تام وأنا ألقي الآيات المنغَّمة القِصار, وكان خليفة أفندي ينظر إليّ نظرة ثابتة عميقة, حتى فرغت, وفي الصمت سمعت همهمة خافتة غامضة من الفصول الأخرى, والأنفاس كلّها معلقة, حتى قال خليفة أفندي فجأة: اللّه..! هذا إلقاء مثل سلاسل الذهب.. فتح الله عليك يا بُني. فأحسست وجهي يتضرّج من الزهو والخجل.

وسمعت لغطًا وضحكًا مكتومًا في آخر الفصل.

في الفُسحة ذهبنا, من يسار السلالم العريضة, إلى الممر الضيق الذي يدور بمبنى المدرسة, ويفتح على حوش مسقوف بالخشب, مبلّط, فيه دِكَك (مقاعد جماعية) **طويلة وموائد خشبية عارية الخشب.**

وكان هذا الحوش معتمًا قليلاً, ومُفرحًا في الوقت نفسه, فقد كان مرتعًا للاستغماية (لعبة الاختفاء والبحث عن المختفي) **والنطّ فوق الدكك وبين الموائد, وتحت الحائط الذي تقوم أمامه حنفية نحاس نشرب منها بأيدينا, تحتها بقعة غير منتظمة مبلولة وداكنة اللون دائمًا, ولم يكن الكبار يأتون إليه.**

(...)

في فسحة بعد الظهر كنت في الحوش الكبير المفتوح الذي يحدّه السور من ناحية, وحيطان البيوت العالية من ناحية, بنوافذها المواربة التي لا تفتح أبدًا, وظَهْر مبنى المدرسة من ناحية ثالثة, وينتهي إليه الحوش المبلّط المسقوف من آخر جوانبه. كانت الشمس تنصبّ عليه فيدفأ جدًّا في الشتاء ويتّقد حرارة في الصيف, وأرضه قد اسودّ رملها قليلاً بتراب ناعم تثور منه سحابات صغيرة تحت أرجلنا من الجري واللعب والصياح الذي لا يهدأ في أثناء الفُسحة الكبيرة. وكان من لُعَبنا الأثيرة أن يخلع أحدنا حذاءه ويمسك به, حرصًا عليه مهما كانت الصداقة, ويقف بالشراب على أكتاف اثنين معًا, ويطلّ برأسه, بالكاد, من فوق السور, ويُنادي على المارة أو البيّاعين القلائل الذين يمرون في شارع الكروم, ولا يحصل على هذه الميزة إلاّ من كسب في لعب البِلْي, أو صَلّح, أو ما نبتكره من ألعاب.

(...)

استرددت نَفَسي, وطلعت السلم, كل درجتين في وثبة واحدة, وعندما خبطت على زجاج ضلفة الباب المغبّشة فتحت لي خالتي سارّة الصغيرة التي لم تكن تكبرني إلاّ بسنوات قلائل, وكانت تحمل, على يدها الأخرى, الصينية المِرآة المستطيلة ذات المقبضين وعليها أكواب المُغَات (شراب ساخن يقدم للنفساء) **السخن رائحته شهيّة, داكنَ الصفرة تطفو عليه طبقة السمن بدوائرها الصغيرة المُزبِدة مغروزًا فيها فتات من فصوص البندق واللوز وعين الجمل** (الجوز)**.**

كانت أمي قد ولدت أختي لويزة, وعملنا لها السُّبُوع (احتفال شعبي يقام في اليوم السابع للولادة) **, وجاء أبونا سمعان وصلّى على رأس أختي لويزة فصرخَت وهي في قماطها الأبيض الوثيق, وبَخَّرَها ورشَّ البيت كله بالماء المصلّى عليه الذي حمله معه في زجاجة صغيرة أخرجها من جيب جُبّته السوداء الحرير, وهزّ مجمرة البخور التي كانت أمي قد أوقدت النار في قطعهِ فحمٍ صغيرة فيها, حتى احمرّت, فامتلأ البيت برائحةٍ عبقة وحرّيفة كرائحةِ الكنيسة من سُحُب البخور المتقطعة, ومن الشموع الموقدة حول قُلَّة منتفخة البطن, مصبوغة بالأحمر, على المائدة في فَسَحة البيت, في صينية نحاسية, ونيران الشمعات السبْع خافتة في عز النهار ومدبّبة وصفراء, وكل شمعة مغروزة في طَبَق فنجان, زُرعتْ فيها سبعة حبوب على أرضية من القطن المبلول, وسُقيتْ برشّ الماء طول الأيام السبعة الماضية, الترمس والفول والشعير والغلّة والحلبة والذرة والعدس أبو جبّة, وكانت النباتات الرقيقة الرفيعة جديدة الخضرة تكاد تكون شفّافة من رقتها, وقد ارتفعت حول جذوع الشمع البيضاء المدوّرة. وكانت أمي, في عزّ شبابها, تقوم من سرير الولادة ثاني يوم, وتعمل شغل البيت, وكان أبي يرسل للبيت الفراخ, بالقَفَص, طول أيام النِفاس, تحملها عربة كارّو من مينا البصل لغيط العنب.**

عندما دخلت, سمعت ثرثرة الستات واللغَط والصيحات الناعمة والضحكات النسائية العالية, كانت أمي عندها ضيوف, جئن يهنئن بالسلامة, ورأيت على كنبة الفَسحَة ملاءاتهن السوداء خلعنها ورمينها من غير نظام, وعلى البُوريه كومة صغيرة من الأساور والحلقان والعقود والخواتم الذهبية.

كانت الكومة الذهبية متهدلة الخيوط والحلقات بعضها فوق بعض, تومض وتشعّ بخفوت. وكنت أعرف أن زائرات أمي عليهن أن يخلعن كل ما يلبسن من ذهب قبل أن يدخلن عليها, طول أربعين يومًا بعد الولادة, خوفًا من (المشاهرة) (أذى يلحق بالأم في فترة النفاس(معتقد شعبي))**. وكانت هذه الكلمة, وهذا الطقس كلّه, يسحرني ويحمل إليّ معاني غامضة عما يحدث للنساء من أشياء غريبة.**

نادتني أمي فخجلت أن أدخل وكل هؤلاء النسوة معها ولم أردّ, فنادتني مرة أخرى بصوتٍ عالٍ, وجذبتني خالتي سارّة من يدي, وعندما دخلت الغرفة كانت النافذة مغلقة والمصباح الكهربائي متّقدًا في داخل كُمثراه الزجاجية المورقةِ المفتوحة وزجاجها بلون اللبن. وفَغَمتني روائح كثيفة مختلطة من الرضاع والمُغات وفَوْح الأجسام النسائية. وكانت أمي نصف مضطجعة مستندة بظهرها إلى مخدّة طويلة على قائم السرير ذي القضبان الحديدية اللامعة المتجاورة, وإلى جانبها لويزة الملفوفة في قماطها, مغمضة العينين حمراء الوجه. وذهبتُ إلى أمي أخطو بين النساء اللاتي تربعن على الكِليم, تحت السرير, في ثيابهن المشجّرة المقوّرةِ الفتحة عن أثداء مستريحة وفيرة, وانكشفت أفخاذهن قليلاً من فوق الركبة, وهن يشربن المُغات ويثرثرن بعضهن مع بعض. وسمعت الست وهيبة تقول لامرأةٍ ممصوصة الوجه حادة الشفتين لا أعرفها: (لا ياختي, اسم الله عليه ده لسه ما احتلمش برضوه). وقالت أمي: (طب بَسّ بَسّ اسم الصليب عليه ده زيّ الملاك اسأليني أنا).

ووقفت أمامها صامتًا وقلبي يدقّ فمدت يدها تحت المخدّة وأخرجتْ صرّة صغيرة جدًّا ملفوفة بقطعة قماش بيضاء معقودة بعُقَد كثيرة وأعطتها لي فأحسستها طريّة كأنّ فيها قطعة لحم حية, واقشعرّ جسمي, وقالت لي أمي أنْ أذهب, في صَفَار الشمس, إلى تقاطع شارع الكروم بشارع سيدي كريم, وأقف أمام بيت روزا الخيّاطة بالضبط في وسط المفارق الأربعة, وأرميها بعزم ذراعي, فوق, فوق خالص.

ظللت ممسكًا بالصرّة الصغيرة اللينة الجسم, وذهبتُ إلى شرفة بيتنا المطلة على إصطبل الخيل وحوش العربات الحنطور (عربة ركوب يجرها حصانين)**. وعندما رأيت أن الشمس تميل للغروب على المحمودية نزلت جريًا, وفي يدي الصرّة الصغيرة, وكنت سمعت أمي تقول وهي لا تعرف أنني أسمعها إنه (خلاص)** (مشيمة الطفل المولود) **أختي لويزة, ولم أعرف ما معنى الخلاص ولكن خيالي النشط صوّر لي أنه شيء ينزل مع البنات فقط عند الولادة ويجب الخلاص منه, وأن أختي الوليدة لن يكون لها خَلاص من عذابات النار بعد الموت إلاّ بذلك. ولكن السؤال الذي كان يحيرني هو كيف أن هذه المفارق أربعة, هل هي أربعة شوارع, يعني؟ لكنهما شارعان فقط, ولم أستطع أن أحلّ هذا اللغز, ووقفتُ بالضبط في نصف تقاطع الشارعين وكان بيت روزا الخياطة من دور واحد, وعريض, وله جنينة واسعة أمامها سور من قوائم الخشب القصيرة وله باب خشبي بضلفتين. وفي الجنينة تعريشة عنب كثّة بالورق العريض والأغصان المتلوّية. وأمام الجنينة رصيف مبلّط بالبلاط الأبيض يفتح عليه**

باب البيت ونوافذه المنخفضة الكبيرة. وكان البيت صامتًا تمامًا, ومظلمًا في هذا الوقت من النهار, فقد كانت الخيّاطة العجوز الشاميّة الأصل تعيش وحدها. وكنت أعرف أن البنات يأتين للشغل عندها في النهار ويذهبن لبيوتهن على العصر. وكنت أخاف قليلاً من المرأة الشمعيّة الوجه الحادّة الأنف, بشعرها الأبيض الجاف الملفوف دائمًا في منديل ملوّن تربط عقدته خلف رقبتها.

كان الشارع خاليًا من الناحيتين, على طول البصر. كل شيء في آخر النهار كان هادئًا ومهجورًا وساكنًا تمامًا, والنخيل في جنينة روزا الخيّاطة يهتز سعَفُه بصوتِ خشخشةٍ خافتة.

رميت بالصرّة الصغيرة التي كنت أمسكها طول الوقت كأنني خائف من قوّتها الكامنة ومقدرتها على الإيذاء, وطوّحت بها ذراعِي إلى أقصى ما أستطيع. وارتفعت اللفّة الصغيرة الطريّة في الهواء, عاليًا باندفاع كأنه آتٍ من داخلها, ارتفعتْ, بقوة, ثم اختفتْ, تمامًا. كأنها ذابت, في انطلاقها إلى أعلى, إلى بعيد, كأن شيئًا ما, غير مرئيّ, قد التقطها في الفراغ. وراحت.

استدرتُ على وجهي, وانطلقتُ آجرى إلى البيت بأسرع ما تحملني قدماي. كأنني أفر.

في حصة الدين كان الأولاد المسلمون يذهبون إلى غرفة المدرّسين حيث يتجمع زملاؤهم من الفصول الأخرى, ويعطيهم خليفة أفندي درس الدين. وأسمعهم, من الشباك, يقرأون القرآن معًا بصوت عال منغّم له إيقاع مليء يحتشد له قلبي بالرهبة, وأحسدهم وأريد أن أكون معهم. أما نحن فيدخل إلينا جرجس أفندي مدرّس الإنجليزي, وكان صعيديًّا (من أهل جنوب مصر) **وقصيرًا ونحيلاً وله وجه قاسٍ أسمر, ويحفظنا قانون الإيمان والوصايا العشرة ومزامير داود وموعظة الجبل وكتابًا صغيرًا فيه أسئلة وأجوبة.**

(...)

كان جابر أكبر جماعة الصغار, ولكنه من الكبار أيضًا, يضع رِجْلاً هنا ورِجْلاً هناك. وبعد الامتحانات التي عقدت في تلك السنة, لأول مرة في حياتي, تحت خيمة عالية نُصبت في الحوش الكبير ولها فتحات وقماش ملون مزخرف كقماش شوادر (سرادقات) **الأفراح والمآتم, قال لي جابر إن عنده سحّارة ملآنة بالمجلات والكتب والروايات فقلت له إنني أريد أن أقرأها, كلها, في الإجازة, فقال لي تعالَ ووصف لي أين بيتهم.**

كان بيتهم في شارع 12 من ناحية كرموز, دخلت من الباب الخشبي من فوق عتبةٍ رخامية ممسوحة, وفوجئت بالسماء فوقي, وكان في جانب الحوش الذي جرت فيه الفراخ من أمامي, فُرن موقد جلست أمامه سيدة بملابس سوداء وطَرحة على أطرافها غبار أبيضٍ من الدقيق, تخبز.

سألتها عنه فرحّبت بي وقالت لي: هوّ أنتَ صاحبه؟ يا أهلا يا ضنايَ.
ونادته بصوتٍ عالٍ, ودخلتُ معه إلى البيت وكان غرفة واحدة فقط, وكان أبوه راقدًا على كَنَبة ومغطى بملاءة مصنوعةٍ من خِرق ملونة قديمة مخِيطة بعضها إلى بعض ويسعل بشدة, وركع جابر أمام الكنبة وفتح لي غطاءً قائمًا عموديًّا يُفتح إلى جنب في بطن الكنبة التي كان أبوه يرقد

عليها, وأحسست بحَرج شديد ونوعٍ من الإثم, ولكن الرجل العجوز قال لي: اتفضل يابْني خُد اللي انتَ عايزه, دا جابر أخوك وكلّمني عنك كتير. ربنا يخليك يابني ويديك الصحة أنت واللي زيك يا ربّ يا كريم. ومدّ جابر يده واستخرج أكوامًا من الكواكب وكل شيء والدنيا والمصور واللطائف (مجلات) **وروايات جرجي زيدان وروكامبول. وجلست على الأرض أمام الكنبة أنتقي منها ما لم أكن قد قرأته من عند الست وهيبة أو من عند أصهار خالي سوريال. وتشجعت فمددت يدي أيضًا تحت الرَّجل الراقِد بضعفٍ واستسلام, مغمَض العينين شاربه الكبير مُصفَرّ تمامًا ووجهه متهضم جاف ومليء بالتجاعيد الخشنة. وخرجَتْ يدي برصّةٍ ملفوفة بدوبارة** (خيط قوي من الكتان) **من أربعة كتب ذات جلدة ورقية خشِنة صفراء, والكتاب الأول عليه رسمٌ ساذج الخطّ ومُغْوٍ لامرأةٍ جالسة على ركبتيها, تضع فخذيها تحتها; قدمها, فقط, بأصابعها المتجاورة, ظاهرةٌ تحت ثوبها, وإلى جانبها خُفّها العربيّ مدبب الطرف, وهي ترفع ذراعها المحمّلة بأساور غليظة وتشير بيدها إلى شيخ له لحية طويلة, مربّعة, مفروشة على صدره, متربّع, ظهره إلى وسادة ويُسند رأسه إلى يده. أما المرأة فثدياها أحدهما قائم ومكوّر والآخر متهدل ومستدير والحَلَمتان قائمتان بارزتان منهما, وامرأة أخرى تجلس على البساط وتنظر إليهما بنظرة رعب.**

وقرأتُ أعلى الرسم (ألف ليلة وليلة) بالخط الرقعة. وعندما, فككتُ الدوبارة رأيت الصفحة الأولى تقول إنها ذات الحوادث العجيبة والقصص المطربة الغريبة, لياليها غرام في غرام وتفاصيل حب وعشق وهيام بالصور المدهشة البديعة من أبدع ما كان ومناظر أعجوبة من عجائب الزمان. وخفق قلبي بشدة. سمعت عنها من الكبار. وتردد جابر في أن يعيرني الكتاب ولكني أغريته بمجموعتي من (عشرين قصة) ورواية سافو, فوافق على أن يعطيني الجزء الأول فقط, وعندما أعيده يعطيني الثاني, وهكذا. وعدتُ إلى البيت أجري جريًا من شارع إلى شارع, في نشوةٍ يطير بها جسمي, حافيًا تخففتُ من الشبشب (خف منزلي) **أمسكه في يدي, مع الكتاب ومجلات الكواكب, ودخلت البيت بعد أن نفضت رجلي من التراب ولبست الشبشب وأخفيت الكتاب تحت جلابيتي الخفيفة وضممت ذراعي, وفيها المجلات, عليه.**

وفي الغرفة الطويلة ذات الشرفة الخشبية المقفلة المسقوفة التي تطل على إصطبل عربات الحنطور, رقدتُ على الكنبة الإسطمبولي, جنب مائدتي الرخامية البيضاوية المفروشة بالجرائد, التي كنت أذاكر عليها دروسي, والجرامفون (مشغل اسطوانات الموسيقى) **ذي البوق ورسم الكلب, انزلقت قدماي إلى أرضِ ألف ليلة وليلة, ودخلتُها, ولم أخرج منها حتى الآن.**

ذهبتُ فجأة إلى قديم الزمان وسالف العصر والأوان, ودخلتُ قصر شهريار ملك ساسان وأخيه شاه زمان ملك سمرقند والعجم (...).

أفزعتني المَرَدة الهائلة تخرج من القماقم, وركبتُ الخيل الحديد تطير على عنان السحاب, وهبطتُ إلى مدن الأبنوس والنحاس الخاوية من البشر, وانحدرتُ على السلالم الأربعين إلى الأقبية الخفية والسراديب فوجدت القردة والدببة الشبِقة, وارتقيتُ ظهور الجن العمالقة وركبت البساط السحريّ إلى جزاير الهند والصين, ودرَّ صدري بالشفقة والخوف على أولاد المساتير المسخوطين كلابًا تنبح وتتغطى منهم الحريم حياء, والمسحورين حميرًا وبغالاً تعتِل الأثقال وتدور بأحجار الطواحين الثقيلة

في سيرجة معتمة نازلة تحت الأرض والرجال الذين لا ينامون أبدًا يضربونها بفروع من خشب الجميز, والزيت يتقطر ويرشح ببطء في طسوت واسعة جدرانها الصفيح سوداء ولزجة (...).

وعرفت جدع الأنوف وسَمْل العيون والخوزقة والتنصيص والتشبيح وصبّ الزيت المغلي على الجسم الحيّ المتنزّي وطيران الرؤوس على حدود السيوف والموت صبرًا في الغِيران والآبار والزنازين والحبوس, والعبيد يكدّون وتنقصم ظهورهم في الوديان والمحاجر والأهوار, والجواري الرافهات اللاعبات بالدفّ والعود, وقَتْلَى الحب, وصَرْعَى المكائد, والأبرياء يُؤخذون بجرائر الماكرين, والصعايدة يحملون شوالات الدقيق البيضاء الدسمة الانبعاجات على ظهورهم القوية القضيفة التي لا يكسوها إلاّ خيش شوال مقطوع الجانبين تبرز منهما أذرع عارية سوداء معقّدة العضلات, والبنات الحيّات, والبنات الغِزلان, والشُّطّار والعُيّار, والعماليق والبطاريق, والقسوس والنصارى بقلانسهم وزنانيرهم وصلبانهم, والسَّحَرة والمجانين, والدراويش والهائمين, والمَجوس عَبَدة النار, والسود عَبَدة الأصنام, والقراصنة والربابنة, والقهرمانات والطواشي, والرهبان والمُجاهدين والصُّنّاع والصيّاع والجواهرجية والصيّاغ والمزيّنين والحمّالين والخلفاء والوزراء وشهْبَنَادر التجار, والبنات الصغيرات صدورهن ضيّقة ومخسوفة وشعورهن الخشنة ملفوفة بالمدورة البيضاء غير النظيفة ينحنين طول النهار بالإبرة والخيط, وجوههنّ الشاحبة تلتصق بالقماش الأسود في مشغل روزا الشامية يفقدن عيونهن في عتمة الغرفة الطويلة المنخفضة السقف. وتَلَوْتُ الرُّقَى والتعازيم وحللتُ الطلاسم وحملت الأحجبة ومَلَّستُ على العِمدان وأشعلتُ المجامر ولبستُ الخواتم السحرية ووجدتُ حجَر الفلاسفة ونشقتُ البِنج والنشوق وسففتُ العقاقير والزرنيخ والجير ولعبت بالدرر واللآلئ والزبرجد والياقوت, وتنزهتُ في البساتين ذات الأشجار الباسقة الفارعة والعريضة والعقيمة والمُثمرة والمتشابكة والجرداء, النخل والجميز والتين الهندي والسنط والكافور والنبق وأمّ الشعور.

واغتسلتُ في الحمّامات, وانسربتُ في الدهاليز والرواقات ونمتُ في الخانات على المصاطب والسُّرُر المفروشة بالحرير, ورميتُ بالسهام والرماح من الأبراج والحصون, وامتطيتُ صهوات الخيل في الإصطبلات بينما الرجال يحكّون روث الخيل الداكن اللون طبقاتٍ مكومة فوق طبقات, والروث الجديد فوقها مدوّر مُصْفَرّ اللون يصعد منه البخار. وأبحرتُ على سفن كالجبال تمخر البحار إلى الهند والسند وجزرٍ واق الواق.

وكنت هناك والترامواي يدهم الصبيان وتطير أشلاؤهم الدامية, سيقانًا عارية مقطوعة ورؤوسهم تتدحرج على حَجَر البازلت الأسود النظيف. انسللتُ أمام زرائب الجاموس المظلمة, أرضها الترابية عليها أكداس من التِّبْن الأسود المنعجن بالروث ولها رائحة نفاذة حارقة للأنف, يعمل فيها رجالٌ سود ليس عليهم إلاّ سراويل كالحة من العَبَك متصلبة بالنفايات الجافّة عليها وصديريات ذات صفّ عمودي من أزرار صغيرة مدورة كثيرة, كثيفة القماش من الوَسَخ يكسحون الروث بأيديهم يملأون به جرادل ضخمة مدورة ويلقونه في أكوام لزجة جنب الباب ويضربون ما بقي منه بالتبن المكدّس على الأرض, ونساؤهم, بعيونهن الجائعة وملابسهن السوداء الملوثة بالبلل, يحلبن الضروع الثرّة باللبن الذي يسقط له خرير في الأسطال المعدنية اللامعة, ثم يركعن أمام أكوام الروث ويصنعن أقراص الجلّة يفرشنها في الشمس على أرض الشارع.

وعندما عدت تجولتُ في شوارع بغداد متنكرًا مع هارون الرشيد, وسمعتُ شجْوَ الأغاني مع الموصليِّ وبراعةَ القريض, وروّعتني فاجعة البرامكة, وأحسستُ عنقي في يد مسرور السياف وذراعيّ ورجليّ مقيدة بالكلاليب والجنازير, وصارعتُ الأحناش والتنانين وفتحتُ الكنز المرصود عن ذهب وماس ولؤلؤ منثور, وأكلتُ من أصناف الطعوم المطبوخات والمشويات والحلويات والنُّقْل من لوز وجوز وبندق وزبيب, وحسوْتُ القهوة والشربات والنارنج والنبيذ الأصهب كالزعفران, وشممتُ الآس والياسمين والنرجس والقرنفل, وعجبتُ من أفعال الرجال في ثياب النساء والنساء في زيّ الرجال المحاربين. وعاشرتُ العفاريت الكَفَرة والجنّ المؤمنين والغلمان كالبدور والقِيان كالشموس وعرائس البحار, والبنات الطيور اللاتي يخلعن ريشهن فإذا لهن حُسْن يدوّخ العقول, كأنهن الحور العِين. ونعمْتُ بملمس القمصان البندقية, الذهبية منها والمشمشية والمطرزة بأسلاك الفضة, على نساءٍ لهن شعور كالحرير ووجنات كرحيق الأرجوان وأنوف كحدّ السيوف وشفاه كالعقيق أو حَبّ الرمان, وأعناق تلعاء كالعاج وصدور كبلاط الحمّام عليها نهود كفحول الرمّان أو حِقاق المِسك والريحان, وخصور مُخَنْصرة كأنها من وهم الخيال وبطون كأنها العجين الخمران مكسوة بشقائق النعمان وأكثر بياضًا من المرمر كل عكنة من أعكانها تسَع أوقية من دهن اللبَان (...).

وجلجلتْ نواقيس الساعة وسطع العالم للمرة الأولى بلهبِ المعرفة وانهمر الطوفان ووجدتُ نفسي فُلْكًا طافيًا على الغَمْر وليس بين أمواج اليمّ العاتية من طريق, وما زلت أطفو وأغوص

غِرْبان سُود في النور

الطفل يحس جسمه يتيقظ فجأة في الليل, في غرفة النوم الدافئة المغلقة الباب. ويجد أنه على سرير عال ثقيل بالأغطية, ليس سريره. وأمه جنبه, مرتفعة الجسم, تملأ السرير والغرفة. ويعرف أن أباه ليس هنا, ولا يعرف أين ذهب, ولماذا هو غائب لا ينام هنا. ويتحرك الطفل على يديه وقدميه, يلف من تحت ساقي أمه النائمة التي تتنفس بهدوء بصوت مسموع. وينزل من على هذا السرير إلى صندوق كبير لا يكاد يراه في ظلمة الليل, مغطى بالألحفة والملاءات المطوية الناعمة التي تتلقى سقطته عليها من غير صدمة.

لماذا كان يريد أن يذهب إلى سريره, مُسَوًّى, نظيفًا, لم ينَمْ عليه الليلة, عريضًا وموحشًا؟ عندما صعد من على الصندوق إلى سريره الخالي, وقف غير ثابت القدمين على المرتبة الطرية, ومشى, يهتز, حتى جاء إلى النافذة المواربة, ونظر منها إلى الشارع, تحت. كانت النافذة عالية جدًّا.

عمود النور في الشارع الخاوي يتقد بالغاز الأبيض الساطع شعلته لا تكاد تهتز في داخل فانوس الزجاج المربع النظيف, فَتْحَتُه من تحت, والنور يسقط من العمود على شجرة كثة الورق, خضرتها, في الليل, تلمع بضوء الغاز, وتحت العمود, بعيدًا جدًّا تحت, يقف العسكري, بحلته

السوداء أزرارها الصفراء تومض وتنطفئ, والبندقية الطويلة, ترتفع من وراء ظهره مصوبة إلى أعلى, إليه مباشرة, والأبواب كلها مغلقة أمامه, والشارع واسع أسود الأرضية وطويل جدًّا. صدر الطفل ممتلئ بدقات قلبه العالية, وهو يرى على الشجرة, وبين الورق المتراكب في الظل والنور, سربًا من الطيور السوداء, طويلة الجسم, كثيرة, كثيرة بلا عدد, واقفة, صامتة, ظهورها مقوسة قليلاً ومناقيرها مطبقة وممدودة إلى الأمام.

يسقط إلى الخلف, يرى خطوط النور البيضاء, متجاورة, مستقيمة, تقع على ظلمة سريره من خلال خصاص النافذة.

يحس أمه تثب إليه من السرير الآخر, تحيطه بذراعيها العاريتين, نعومتهما على ظهره, ليس فيهما أمان, بعد, وتقول بصوت خفيض مُلِحّ: اسم الصليب اسم الصليب. وتحتضنه إليها فيغمض عينيه ويدفن رأسه في صدرها الغني لا يكاد يحتمل دق الدم في صدره.

يقول لأمه بلهفة: فين بابا؟ فين بابا؟ فتهدهد خوفه: ياختي, يايسوع. مالك (مَسْرُوع) كده؟ إيه اللي قوّمك بس؟ طب تعال, تعال نام واتخمد. كده (سَرَعْتِني). فيسأل ثانية: فين بابا؟ فين بابا؟ ويحس عينيه تغمضان.

وبعد أن ضربته الحياة كثيرًا, وأحبطته, ولانت له أيضًا, وأمتعته بعمق, مثل كل الناس, ظل يرى المشهد نقيًّا, كأنه حدث بالأمس, كأنه يحدث الآن.

في قاع المياه المضطربة حصاة بيضاء, مدوّرة, ناعمة. لم تترسب عليها شائبة من عكارة السنوات وطينتها.

ظل يحتفظ به طول عمره, يتأمله ويسترجعه, يهدهده في خِفْية. ويعتقد أنه أول ما يذكر, أول ما بقي, واضحًا, وحاضرًا, وفعّالاً. ويظن أنه كان عندئذ في الثالثة من عمره, بالكثير. بل يجب أن يتصور أنه كان في الثانية من عمره حتى, ولكنه يقول: الثانية؟ غير معقول. لا أظن. هذا مبكر جدًّا, أليس كذلك؟ في الوقت الذي يظل فيه أميَلَ إلى هذه الفكرة لا يتخلى عنها, ويقول: ولم لا؟ صحيح. نعم.

كنت في الثانية, أو نحو ذلك على أي حال, صحيح... ولا يستطيع طبعًا أن يحسم الأمر. بل ينظر إلى الطفل الذي كانه, ويبتسم قليلاً, وكأنه آخَر, وإن كان غير غريب. وما زال يشعر بخوف ذلك الطفل, ومضضه, وبحثه الملتبس.

قال لنفسه: مَنْ هذا الطفل؟ أين هو؟

وقال: ومَن الصبي الذي كان بعد عشر سنين, وبعد أن طفا فُلكًا متطوحًا على طوفان جسده, وحده, تتخبط به أمواجٌ ملتطمة وساطعة وملتبسة؟

انتقل أبواه, مرة أخرى, وأخرى, من بيت إلى بيت, بحثًا عن شقة إيجارها أرخص, وأقرب إلى العباسية الثانوية, وهربًا من الحجز على عفش البيت وفاء للأجرة المتأخرة المكسورة شهرًا على شهر, حتى استقروا في بيت عبده في محرم بك.

وانقطعت صداقاته بزملاء النيل الابتدائية في غيط العنب, وكان يحس نفسه وحيدًا وغريبًا بين جمهرة تلاميذ العباسية الثانوية, كثيرين جدًّا, ملابسهم أغلى وأحسن, كلامهم وطريقة سلوكهم تختلف, والمسلمون فيهم أكبر عددًا بكثير. وتعلم أن يأكل, حسب الأصول, في مطعم المدرسة الفواح برائحة الأكل الشهي والمدوّم بلغط الأكل البهيج, الطبيخ والأرز واللحم أو الفراخ والحلو كل يوم.

وقبل الأعياد هناك الأكل الصيامي اللذيذ للأقباط, مخصوص, أما في رمضان فيصرف لهم سندويتشات, موضوعة في علب ورق بيضاء. وفي الفُسَح الطويلة بعد الغداء دخل في زمالات وصراعات, ولعب الكرة الشراب وتسلق أشجار الجنينة الممنوعة في بيت الناظر, وضرب وانضرب, وعرف المكتبة الغنية وغرق في كنوزها, وطُرد من المدرسة لأنه لم يدفع قسط المصاريف وعاد بعد أن دبر أبوه الجنيهين و300 مليم وأخذ بها إيصالاً رقيق الورق أحمر اللون.

كانت أمه قد أطلت من البلكونة على البائع الذي كان ينادي من تحت (بيكيا. بوتِيلْيا..) وقالت له: تعال. وكان صعيديًّا يلف على رأسه عمامة من قماش أسود وحول رقبته الطويلة كوفية سوداء, وساومته طويلاً وقال لها: صلّي على النبيّ, طَبْ مجّدي سيّدك, ما هي جايبة حَقّ المَشال (لا تستحق أجر جملها)**. حتى رضيت بأن يأخذ البوريه** (قطعة أثاث)**, بمرآته البلجيكي الثقيلة, على جانبيها دواليب صغيرة أبوابها الخشبية مشغولة ولها زجاج محبب أصفر وأحمر داكن, ورخامته المحمرة مجزعة بتشريجات بيضاء متشعبة, وأدراجه التي كان يرسم على خشبها الداخلي الأبيض, وهو طفل, رسوم رجالٍ لهم وجوه دائرية مقطوعة فيها عينان وشَرطة فم وأيد وأرجل كالعصي, وكتب عليها اسمه من غير حروف المد كلها, بحروف منفصلة م خ ء ل. وذهب الرجل وعاد ومعه شيال صعيدي ثقيل الجسم فَكّ أجزاء البوريه وحملها على ظهره ونزل بها السلالم.**

كان جابر هو الصديق الوحيد الذي ظل يأتي من غيط العنب, كان قد قضى العام كله في المدرسة الزراعية في شبين الكوم, حيث عاد أبوه, ما زال يعاني من المرض, والكحة, و ولكنه عنيد, وصلب العود, ليعمل مزارعًا في عزبة (شيعة صغيرة تملكها عائلة أو فرد) **البيه** (لقب ألغي فيما بعد) **القريبة من البلد, وقال له إنه سقط في امتحان آخر السنة, وإنهم عادوا إلى بيتهم في غيط العنب, وإنه اشتغل ظهورات** (عمل غير ثابت) **في البلدية ويكسب الآن عشرين قرشًا في الأسبوع, كل يوم سبت, نعمة من عند ربنا. وكان يأتي إليه بأعداد رَجوع من مجلة أبوللو, وروايات الجيب, وأهداه صورة قطعها من مجلة أبوللو, على ورقٍ حِسُّه ناعم, بألوان مضطربة, وفي أسفل الورقة علامات خروم الدبابيس التي كانت تثبته بالمجلة, وعنوان: نفرتيتي والمثال.**

نفرتيتي تجلس على منصة عالية بدرجتين عن الأرض, وبجانبها أصص زرع بنفسجي وحشي متَهدّل تحت ستارة ثقيلة زرقاء عليها رسم أعواد اللوتس القائمة الطويلة تنتهي بازدهار مقوس تخطيطيّ الزخرفة. تاجها الأزرق المقطوع السطح معقود بشريط مذهَّبِ التطريز, وكأنها تنظر إلى ما وراء الصورة, وجهها صارم ودقيق وفيه شبهة ابتسامة, وصدرها عارٍ تمامًا لا يغطيه إلاّ عقد عريض متعدد الحلقات بالأزرق والأصفر وثديَاها صغيران وقائمان في دورانهما ليونة متماسكة مخروطة, وينسدل على فخذيها ثوبها الحريري الأبيض اللدن الطيات. أمامها, من بعيد وإلى تحت, المثّال يضع اللمسات الأخيرة في تمثالها, جالسًا على

كرسي بغير ظهر وإحدى ركبتيه مثنية, نصف جسمه العلوي عار خشن الأضلاع وشعره جَعْد مربوط بعصابة رفيعة من القماش الأبيض, ويلف على حقويْه إزارًا معقودًا بحزام قماش أحمر, لا يصل إلى ركبتيه العاريتين. وهو يرفع إليها عينين عابدتين. وبجانبه قِصاع الألوان الصغيرة وفُرَش التلوين, والقادوم والإزميل والمساطر والإِبر الطويلة وسائر عدة مهنته.

زرقة الحلم الداكنة هي لون العالم.

وعلى ظهر الورقة البيضاء الأملس مكتوب بخط كبير: إهداء من جابر بسيوني إلى ميخائيل قلدس 1937 - 1938, في داخل إطار مستطيل له ثلاثة خطوط بالمسطرة والقلم الرصاص الذي بهت الآن.

كان أمام بيت عبده, في محرم بك, فيلاّ قديمة من الحجر, مربعة, مسطحة الجدران, ووراءها حديقة لا يرى منها, خلف البناء المتين, إلاّ أعالي النخل وشجر المنجة والتوت الداكنة. ولم يكن يعرف عن أصحاب هذا البيت إلاّ أنهم أغنياء, مترفعون, لا يختلطون بالجيران بل لا يكلمونهم, ولهم أم عجوز لم يرها قط, وولد في مثل سنه كان يخرج إلى البلكونة, في مقابل بلكونة بيتهم, كثيرًا, وكان يذهب للمدرسة في سيارة فورد سوداء عالية ومربعة, وأخته الأكبر منه بعدة سنوات, جميلة جدًا.

ولم يعرف أسماءهم ولا جرؤ على أن يسأل, وكان يعرف أنهم من أصل تركي.

كان يقف في البلكونة المطلة على الفيلاّ, أعلى منها قليلاً, ساعات. لا يفعل شيئًا, ينتظر فقط أن تخرج إلى الشرفة المقابلة.

وكانت لا تخرج إلاّ لحظة واحدة, ثم تدخل على الفور.

كانت بيضاوية الوجه, ناصعة, شعرها الفاتح ينسدل على كتفيها وتلمّه وراء عنقها بربطة زرقاء رقيقة, ودائمًا تخرج في روب دي شامبر (رداء منزلي) **حريري, أزرق سماوي عليه رسوم ورد أحمر وأصفر كبير, ملفوف على جسمها اللدن, سابغ يؤكد انسياب ساقيها الطويلتين. وكان لحذائها الصغير ذي الكعب العالي قليلاً وقع على بلاط شرفتها, يسمعه في الشارع الساكت.**

يحبها جدًّا, ويحلم بها أحلامًا مبهمة غير متحددة, ولم يفكر قط في أن يعرفها أو تعرفه أو تنعقد بينهما علاقة من أي نوع. فقط ينتظرها, وينظر إليها, وترفع إليه عينيها أحيانًا, ويحبها جدًّا.

الحلم لم ينطق. اسودّت شفتاه.

(...)

كان أبوه أيامها قد ترك عمله عند الشيخ المراغي تاجر البيض والبصل والمسلي في شارع أنسطاسي بسبب قضيةٍ ما ظلت غامضة عليه حتى الآن, وكان بالكاد يعمل حسابات التجار الآخرين باليومية, أو بالمقاولة, يشتغل يومًا أو يومين, أو أسبوعًا أو أسبوعين ثم لا يجد شغلاً بالأسابيع,

ولكنه ينزل كل يوم على الصبح, في ميعاده, بعد أن يشرب قهوته التي يصنعها بنفسه على السبرتاية, ولا يعود إلاّ على المساء. جفّ وجهه ونحُل وغارت عيناه الثاقبتان المليئتان بالذكاء واليقظة, ولكنه ظل أنيق الملبس, أمي تنظف له البالطو بالفُرشة صباح كل يوم, والجلابية المفتوحة الحرير السكروته مكوية دائمًا, تهفهف, شقها مطوي على الشق الآخر بحزام مضفور دقيق, والطربوش حاد الدوران, جاف الحافة من غير أثر للعرق ليس عليه ذرة غبار.

وقرأ في اللطائف المصورة أن حضرة صاحب السعادة مراد سيد أحمد باشا عُيّن وزيرًا مفوضًا لمصر بألمانيا بعد أن كان يشغل هذا المنصب في بلجيكا خلفًا لسعادة سيزوستريس سيداروس باشا وترك أثرًا جليلاً في التمثيل الخارجي. وتأمل قليلاً في صورته, بالطربوش القصير والنظارة المدورة اللامعة والشارب المشذب, والياقة البمباغ (ياقة للقميص مصنوعة من لدائن)**, والمعطف الاسموكنج, ممتلئًا باعتدال وكبرياء.**

عاد أبوه مرهقًا, هالكًا من البحث والفشل, وسمع أمه وهي قاعدة على الأرض في الفَسحَة تقول باللهجة الصعيدية التي تعلمتها منه رغمًا عنها: يا حِزْني يا حِزْني... يا ميلة بختك يا سوسن..

ودخل أبوه غرفة النوم وأغلق بابها على نفسه وسمعه يصلي, وارتفع صوته من وراء الباب بنشيج مكتوم ودعاء لله, محروقِ القلب. فثارت نفسه عندئذ على أبيه وأمه معًا, واعتمل قلبه بالسخط الغامض عليهما معًا, والغضب. وهرب إلى الغرفة التي فيها مائدته الرخامية أمام الكنبة. فتح كتابًا لم يقرأ فيه, وعندما نادته أمه على العشاء مع أخواته قال لها إن نفسه مصدودة, فقالت إنها ستترك عشاءه على ترابيزه الوسط في الفسحة وقال له أبوه: ربنا يرضى عليك يا وَلَدي وينجّحك ويفرّح قلبي بيك.

قال: وقامت الحرب بعد ذلك, وانصلحت الأمور قليلاً وانتظمت, ودخلتُ الجامعة لأدرس الهندسة لأن أبي كان يريد أن يراني مهندسًا وبَنَّاءً عظيمًا ولكنه مات في ثاني سنة لي في الجامعة ولم يفرح قلبه بي.

وقال: مثل ناس كثيرين, جدًّا. وليس مِثل أحد.

تيقظ من النوم متأخرًا, فوجد أن أخته التي كانت تنام على نفس سريره قد قامت قبله, ووجد أن صباح الجمعة يمتد حائرًا وخاويًا أمامه. نزع ملاءة السرير المغضنة من عليه ولمَّ جلابيته حوله, وعندما فتح الشباك دخل الذباب إلى الغرفة, وكان كثيرًا وعنيدًا وراح يدور ويئزّ. فذهب إلى المطبخ الكبير الخالي, وكان معتمًا ونظيفًا, وإبريق الشاي يغلي على الوابور, وإفطاره جاهز, تسقيّة الخبز الناشف مكسر ومكوم في صحن غويط, وكوز اللبن المغلي بجانبه. وسمع أخته عايدة وأخته الصغيرة هناء تلعبان في البلكونة وتثرثران بذلك الذي تثرثر به البنات في سنهن, أيًّا كان, لا يسمع إلاّ أصواتًا طفلية مستغرقة في اهتمامها بنفسها, تمامًا. وصب لنفسه اللبن على التسقيّة, وجلس يأكل بمعلقته الفضية الخاصة به منذ كان صغيرًا جدًّا, وكان يصنع في ذهنه شعرًا حزينًا ويردد لنفسه:

(حالت من الروض وُرودُه,
وماء الحسن قد جف عودُه..
وذوى النبت يا طول ما ماست

قدوده).

ثم قام ليغسل وجهه.

قال لأمه: عايز مصروفي النهاردة. نص فرنك (قرشان)**. كفاية بقى. أنا ماخدتش حاجة بقى لي أسبوع بحاله.**

فنظرت إليه بصمت, وقالت: حاضر.

قال ملحًّا: دلوقتي. أنا نازل بعد الظهر.

فقالت مرة أخرى: حاضر, ورآها تذهب إلى دولاب الملابس, واشتغلت بما فيه مدة طويلة ترفع الأشياء التي فيه وتقلبها وتحطها, وعادت إليه تحمل شيئًا ملفوفًا في ورقة جرنال (صحيفة يومية) **أعطته له فأحسه لينا وطري الطيات في يده من وراء الورق الخشن الذي له حفيف.**

قالت له أن يذهب إلى محل الرهوناتي (محل للإقراض بالربا) **الذي في آخر شارع محرم بك, على اليمين, بعد شارع عِرْفان, سيجد يافطة باسمه, اسمه يواقيم إسكندر. قال لها: آخذ كام؟ قالت: إللّي يديهولك.**

وحولت عنه وجهها.

نزل السلالم بالجلابية, لم يغيرها, يحمل اللفّة المطوية, بعناية, ورفع رأسه إلى البلكونة المقابلة ودق قلبه لأنها كانت خالية, وخرج من الشارع الترابي العريض إلى شارع محرم بك وهو يسير بسرعة, والترام يهتز في صباح الجمعة الموحش, وعربات الحنطور تجري بجانبه تحت الأشجار. ومر أمام المقاهي, خجلاً ومضطربًا يتخيل أن كل الناس تعرف. وعبر أمام محل عينو في تقاطع الإسكندراني ومحرم بك, وسار تحت الأسوار الحديدية للبيوت القديمة كأنها سرايات, بأبراجها الحجرية وحدائقها الكثيفة الشجر, حتى وجد الدكان, عليه اليافطة, وبابه من الصاج المضلع, مرتفعًا في أسطوانة كبيرة ملفوفة إلى أعلى. وكان واسعًا ومعتمًا, والبلاط الرمادي رطب تحت حذائه القماش. وكانت المنصة الرخامية سوداء وعالية, يقوم في منتصفها, حاجز من النحاس من الحائط للحائط, له قضبان رفيعة لامعة صفراء, متجاورة, في وسطها فتحة مدورة صغيرة. ومد الرجل يده, من الفتحة, بصمت.

رأى وجهه الغليظ تحت طربوش قصير داكن الحافة ضيق على جبهته الناتئة, وأنفه حاد, أقنى, عيناه صغيرتان قال لنفسه إن فيهما نوعًا من الفهم والحزن, وقال لنفسه لا ليس فيهما شيء.

انفكت ورقة الجرنال وسقطت, وأحس في يديه النسيج الصوفي القديم بلونه البنفسجي الفاتح عاريًا وسخنًا من طول إمساكه به, فتَل الصوف واضحة, متقاطعة, كثيفة, وشمّ نفْثةً خفيفة من رائحة العرق وهَبْوةً لا تكاد تُحس من العطر الذي يعرفه. تناول الرجل الفستان من يديه, وفرده وراء الحاجز النحاسي وهزّه أمامه, ورأى الكمّين الطويلين الضيقين, يهتزان بين اليدين الغريبتين, وانسدال النسيج من تحت الحزام العريض وفتحة الرقبة المشغولة بكلفة من القماش نفسه خالية.

وقال الرجل بصوت طري, من غير اهتمام, وحاسم: ثمانية صاغ (قرش)**.**
وأحس صوته يخرج مخنوقًا قليلاً وهو يقول: طيب. وكتب الرجل على ورقة مشرشرة من منتصفها, ثم مزقها من عند الشرشرة بصوت سمعه مفاجئًا, قاطعًا, في عتمة الدكان الفسيحة, ورشق نصف الورقة بدبوس في رقبة الفستان, وأعطاه النصف الآخر وقال له: شهر, فَكّ الرهنيّة بعد شهر 30 يوم. من النهاردة.

أعطاه الفلوس, قطعة بخمسة, وقطعة نصف فرنك مدورة صغيرة, وقرشين تعريفة (نصفا قرش) **مخرومين. وخرج من الدكان. أعشى عينيه نور الشمس الحارقة, فلم ير في الشارع شيئًا.**

تغدّوا يومها متأخرين جدًّا, نزلت أمه بالملاءة السوداء, وعادت ومعها لفة طرية الشكل في قطعة قماش سوداء مربوطة, عندما فكتها على رخامة المطبخ اصطدمت بها, بصوت مبلل, أرجل الفراخ بأصابعها المفرودة وجلدها الخشن المجعد على العظام المحزوزة بالسكين, أطرافها داكنة اللون, ورؤوسها المفتوحة العيون, ملتصقة بالرقاب, مقطوعة, بعضها فوق بعض, على الرخامة البيضاء المنقورة بحبيبات دقيقة. أكلوا فتة عيش بالخل والثوم, وشوربة فراخ.

وبعد الغداء أعطته أمه القطعة الفضية المدورة الصغيرة التي كان قد جاء بها من دكان الرهوناتي.

(...)

وذهب مع جابر إلى (كازينو غيط العنب) أمام الكوبرى. وطلب جابر اثنين شاي. ولذعَ السائل السخن المسكّر الثقيل اللون والطعم لسانه وكاد يشرق به وأحس الدم يكاد يتفجر من عينيه. وكانت القهوة محاطة بحيطان من الزجاج والحديد, ومشتعلة بالنور من المصابيح الكهربية القوية, وغاصّة بالعربجية وعمال الزرائب والصعايدة يقرقرون في النراجيل التي يغرغر الماء في بطونها المدورة, ويشفطون الشاي بصوتِ استمتاعٍ عال, ويثرثرون بلهجتهم التي يحبها لأنها لهجة أبيه.
وأصر على أن يدفع ثمن الطلبات, جاء الجرسون بجلابيته التي في مقدمتها جيب كبير مبلول, فأعطاه كل ما معه, القطعة بقرشين, وكان قد حرص على أن يتلمسها وهي صغيرة, روَّاغة, في جيبه طول القعدة, ليتأكد أنها هناك, وأمام إصراره لم يمانع جابر كثيرًا, ولكنه عندما رد للجرسون القرش تعريفه الباقي, على سبيل البقشيش, قال جابر, هَمًّا, إن هذا كثير, اثنين ثلاثة مليم كان كفاية.

ويقول لنفسه: أين أنت الآن يا جابر? هل تعيش في اسكندرية, ما زلت, ولك أولاد - كبار, وأحفاد, ربما? هل متّ, وانقضيت? وما أغرب هذا كله, وكيف لم يرك هذا الصبي, بعد, طوال خمسين عامًا أو تقلّ قليلاً? وأين ذهب كل هؤلاء الصغار والكبار?

ويقول: ما معنى هذا التوجّع الصعب, وضعف النفس, ولذع الحنين القديم? وما قيمته? أليس هذا كله معروفًا ومأثورًا, قرب نهاية الأمر? فما عكوفك, المثير للسخرية قليلاً, على ما باد واندثر? حذار.. خلّ بالك.

(...)

جاء من محرم بك, مشيًا, إلى محطة الرمل, ترك وراءه أحزان صباح ثقيل السحاب في سماء الإسكندرية الفضية, المقفلة على نفسها فوق البحر, وعَبَر السلسلة, ووقف عند الشاطبي. ترك الكورنيش, ونزل على سلالم متعرجة منحوتة في الصخر المتآكل الزلِق تحت قدميه, وكانت السلالم تغوص في مياه بحرية هادئة ويهتز موجهًا في دوائر تتسع حتى تصل إلى حافة جدران الصخر فتصطدم به بخفة, رغوتها متقلبة الزبَد. وتحت قدميه العاريتين, بالضبط عند التقاء الماء بالصخر, طحلب مخضرّ كثّ الوبرة, مُخْضلّ بالبلولة اللزجة; إذا انحسرت عنه موجة الماء الشفافة, الهفهافة القوام, جفّ الطحلب بسرعة, واصفرّ لونه قليلاً ونشف الماء تمامًا. يبيّض جسد الطحلب شيئًا فشيئًا فإذا هو غضّ وناعم وأملس يلتف بلدونة ملتصقًا بحافة الصخر الدائرية, حتى يرتفع الماء فجأة, ويلطمه برفق, فيبتل من جديد, ويعود أخضر غضِرًا كثيف اللحم.

النور يأتي من فتحةٍ علوية واسعة منقورة في السقف الحجري مضطربةِ الحواف, فيغمر هذا الاتساع الداخلي المحصور بين صخور مشققة عليها طبقات بارزة قليلاً متلوية الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشة ومتماسكة بالكاد. وينفتح, إلى جانبه, في الجدار المحبب, نفق متحدر نصفه العلوي القريب منه جاف, مدور, أرضيته رملية مفروشة بقواقع صغيرة بيضاء كثيرة, ثم يهوي النفق إلى الماء وتلتطم الأمواج فيه ويرتفع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيز الفراغ فوق الموج حتى يغوص النفق تمامًا في الماء الذي يملؤه, بلونه الأزرق الداكن, حتى العمق المدفون الذاهب إلى تحت في ظلمة القاع.

يعرف أن فتحة النفق التي تدعوه مُغوية, ومُفضية إلى التهلكة. وينزل بثقة على سلالم يعرف أنها ستهبط به في الماء, إلى كهوف أخرى, واحدًا بعد واحد, منقورة كلها في قلب صخر البحر الداخلي, تحت الأمواج, عالية وفسيحة يهبّ فيها نسيم رقيق ملحي الطعم, منيرة بضوء خاص من غير شمس ولا مصابيح ولا شموع, فيها فتحات على الرمل الأبيض الذي تغمر سطحه, بالكاد, مياه قليلة, مترجرجة.

حتى وصل بعد رحلةٍ لا جهد فيها ماشيًا كأنه يسبح في الهواء, إلى أرض رملية فسيحة غارقة في شمس السماء تحيط بها أسوار النحاس المُصمتة العالية, سميكة وساخنة, إنْ دَقَقتَ عليها جاءك صدى أجوف عميق, لا باب فيها; دائرية تمامًا ولكنها شاسعة لا يكاد البصر أن يحيط بدائريّتها المرمية على أقصى سعة الأفق, بإحكام لا منفذ منه, ولا رغبة له في الخروج منها.

وإلى هذه الساحة الرملية الخاوية سوف يخرج, بعد أن يغتسل ويتطهر في البحر المالح.

(...)

وأعرف أن الظلال السوداء عندئذ, سوف ترفرف عليّ, وتسقط, من السماء الخاوية.

لماذا أنثر حبات قلبي على الرمال, تحت أقدام العابرين, مَنْ سوف يلتقطها? وماذا سيفعل بها?

الظلّ تحت عناقيد العنب

كانت اسكندرة, بنت خالتي لبيبة, كعروسة المولد.

صافية, خمرية, ملساء. عيناها واسعتان خضراوان, وشعرها الوحْف ذهبيّ داكن.

ولم تكن خالتي لبيبة, أمّها, خالتي على الحقيقة, بل خالة أمي. ولكن اسكندرة كانت في مثل سنّي, يمكن, أو أكبر قليلاً. وكانت تلبس فستانًا حريريًّا, أبيض, مخنصرًا وواسع الحاشية, واسع التقويرة على صدرها. وكأنها لم يكُن عندها غيره. وصدرها لم يكد ينبت, ولكنه, على صغره, ناهد, وقوي.

وكنت, في كل مرة, واجف القلب وأنا أزورهم في بيتهم في شارع نزيب, قريبًا من بيتنا. أدخل من باب خشبي كبير, كأبواب المخازن, يفتح على حوش طويل كأنه حارة داخلية, فيه حنفية ماء سوداء غليظة الفوّهة, قائمة من الأرض, عمودية, أمام مرحاض مبني من الحجر الأبيض الخام, وحده في الحوش, يخدم البيت كله, وقد نشع الماء في تموّج قاتم يدور بحيطانه الأربعة, وتهبّ منه, دائمًا, رائحة خاصة نفاذة. تُظلله شجرة توت ضخمة, في الموسم تطرح حَبَّها الأحمر الأسود الغض الدسم, وأحسُّ أن في داخل جذعها العريض المفتول حياة خاصة وباقية.

رُكِنَتْ على حائط الحوش عجلات خشبية عالية, هائلة الاستدارة, مخلوعة من عربات الكارّو الضيقة الضخمة, وصفائح مياه صدئة, وطسوت سوداء وكراسي مكسورة الأرجل, وأنا أخطو بحذر وتوجّس بين الكراكيب وبرك الطين المبلولة دائمًا, أمام ثلاث غرف متتابعة, أبوابها مفتوحة عن بوابير الجاز التي تتّقد وتفحّ تحت الطبيخ والغسيل, والستات اللاتي تربّعن على الأرض بلحمهن المنفرط وهدومهن القليلة المفتوحة عن أفخاذ مدموكة وصدور محصورة منبعجة, أو متهدلة ساقطة في أفواه الرضَّع, حتى أصل إلى غرفة خالتي - خالة أمي - لبيبة, في آخر الحوش, جَنْب السلم الحجري الخارجي الذي نصعد منه إلى سطح البيت, أنا واسكندرة, ويأتي معنا, أحيانًا, أخوها زكي, صغير الجسم, صموت, وثاقب العينين. نترجّى خالتي لبيبة لتعطينا مفتاح باب السطح, فتخرجه لنا من تحت رأس المرتبة على سريرهم الوحيد, وكان مفتاحًا حديديًّا طويلاً له رأس على شكل حلقة مفرغة كبيرة.

كان السطح هو الذي يسحرني.

كان مسوّرًا من الخارج بالحجر, وطويلاً, وله باب رقيق الخشب باهت اللون نفتحه بالمفتاح الصدئ الكبير. وعندما يصرّ الباب, وينفتح, تفاجئني, كلّ مرة, تكعيبة العنب التي تغطي السطح كله, مورقة, ومظللة وبليلة الأنفاس, والهدوء الساري, وخفوت كل ضجيج, والبلاط الأبيض النظيف ليس عليه إلاّ ورق عنب جاف ساقط وجذاذات رفيعة يابسة من فروعه وتراب خفيف مكنوس. والنور تحت التعريشة اللفّاء

الممتدة خفيف كأنه خمْر, عَطِر الخضرة, وكانت رقرقة الهواء بين أوراق العنب المتربة قليلاً, المتدلية من التعريشة, واهتزاز حلقات الضوء المستديرة تلعب بها الشمس على البلاط الأسود بين الظِّلال الصغيرة المتراوحة كأنها رنين موسيقى خافتة من أصابع كريستال بللورية طويلة متأرجحة. وفي آخر الصيف أشم سُكَّر العنب الذي يستوي, مترعًا بعصارته, على مهل.

كانت اسكندرة تأتي إلى بيتنا, قبل الأعياد وقبل رفاع الصيام, لتشتري من وابور الطحين الذي أمام البيت نصف كيلة دقيق ناعم نمرة واحد, تصنع منه خالتي لبيبة الفطير الفلاحي المشلتت على مرق الوزة أو ذكر البط. وكنت أصحبها إلى الوابور أساعدها في شراء وحمل الدقيق, وأكون معها.

كان هذا المطحن يختلف عن مطحن راغب باشا الذي بعد الكوبري.

هنا كنا ندخل, أنا واسكندرة, من فتحةٍ صغيرة مربعة مقطوعة في جسم الباب الخشبي الضخم, نعبر فوق عتبة رخامية مرتفعة قليلاً فكأننا ننزل منها إلى عُمق فسيح متموج الهواء معتم قليلاً بعد الشارع بنوره الحاد, نجد أنفسنا في باحة عريضة عالية السقف, خافتة الضوء, يسبح فيها رذاذ الدقيق كأنه ضباب جاف وشفاف ورقيق جدًّا, وأرضها سوداء صلبة الحجر. ويقف, في مواجهتنا, في آخر الباحة, حاجز عال من السلك الأخضر دقيق الخروم وفيه ثغرة مربعة مقابلة تمامًا للشق المفتوح على الشارع.

ووراء السلك, في حزمةٍ من نور الشمس تسقط من فتحةٍ مدورة مغطاة بالزجاج في السقف, تقوم الأقماع الحديدية الهائلة, جَنْبها سلالم معدنية مكشوفة مثبتة إلى الحائط بقضبان أفقية: تنصبّ الأقماع في مواسير أسطوانية تهتز باستمرار وتدور حولها السيور الجلدية العريضة التي تدخل فجأة من شقوق ضيقة مفتوحة على مقاسها تمامًا في حائط حجري تقع وراءه منطقة المحرّكات الخفية والمحظورة علينا. في المطحن كله تتجاوب أصوات الدقّ المتواتر الذي يأتي من وراء الحائط رتيبًا ومنتظمًا, ينبض بقوةِ قلبٍ معدني هائل, وخشخشة غربلةٍ مستمرة متراوحة الإيقاع ونشيش احتكاك الحبوب بسلك الشبكات المعدنية كوشيش الماء على شطٍّ خشن الرمل.

كان بيتنا الذي أمام هذا المطحن في شارع ألبان, مزدحمًا ولكنه واسع فسيح مليء بالحركة والحياة.

كنا نشغل الحجرات الثلاث من الناحية الشرقية القبلية. ننام أنا وأخواتي البنات في غرفة مُنيرة تطل على حوش خلفيّ بين البيوت, هادئ ومزروع وفيه تعريشة لبلاب كثّة نراها من شبّاكنا ملتفّة على الحيطان وعلى قوائم خشبية قديمة وعلى جذوع ثلاث نخلات طوال سامقة تنبع كلها من جذرٍ واحد عريض متشابك, وتميس بسعفها بين حيطان البيوت التي تنزل عليها من كل ناحية مواسير الماء والمجاري, رفيعة وسميكة, مدورة متجاورة, ومواسير صرف مياه المطر المفتوحة عند آخرها على الأرض ترويها في الشتاء من ماء السماء.

و(الصالون) يقع بين غرفتنا وغرفة نوم أبي وأمي. وفيه الكنبة الإسطمبولي العريضة, والجرامفون ببوقه المفتوح, والكراسي المنجّدة

والخيزران, ومائدة الأكل الطويلة, وتمثال البربري الصغير الملون بعمامته الحمراء وقفطانه الأزرق, ويداه تحملان منفضة سجاير تقشرت أطرافها وبان منها لحم الجبس الهش الأبيض. فيه نستقبل ضيوفنا, فإذا جاءنا أقارب أبي من الصعيد فرشنا لهم وناموا على الكنبة. وله باب عريض من ضلفتين زجاجتين, والزجاج السميك المحبب فيه نقوش زهور وأوراق وأغصان بيضاء من نفس نسيج الزجاج.

يفتح هذا الباب على فسحة كبيرة طويلة, فيها, من الناحية الشرقية, الغرفة التي أخذها خالي سوريال وعروسه. بعدها, على طول, غرفة المطبخ المُشمسة الكبيرة المليئة بالحلل والبرطمانات على الرفوف والمغارف والأطباق الصيني في النملية وموائد الطبيخ المزدحمة ببوابير الجاز.

في مقابل غرفة خالي سوريال حمّامان طويلان, لكل منهما نافذة عالية مدورة, ودوش, والمرحاض في واحد منهما بلدي, هو الذي أوثره وأعرفه, وفي الآخر أفرنجي ولا أدخله.

أما في مواجهة المطبخ فالباب الداخل على غرفة خالي يونان وامرأة خالي إسْتِر التي كانت تحبني, وكانت أيامها قد خلّفت يعقوب, فقط, منذ قليل, وتُرضعه. وكان خالي يونان ما زال عنده تاكسي مِلْك يسوقه ويكسب منه الشهد, وما زال يشتغل في النقابة مع البِرِنس عباس حليم (أحد أمراء الأسرة المالكة).

أما خالي ناثان فلم يكن يسكن معنا وإن كان يأتي أحيانًا على الفجر, يُصحِّي البيت ويفطر وينام, وكنت أعرف أنه يشتغل على سيارة لوري (شاحنة) ضخمة يسوقها إلى دمنهور كل ليلة ويبات هناك معظم الأيام. ولم يتزوج خالي ناثان إلاّ بعد ذلك بسنوات عندما شبع من الخبص مع النسوان, ولم تخلّف له امرأته فكتوريا بنت عم أرساني إلاّ بنتهما الواحدة. ولم أر بنت خالي هذه أبدًا, إلاّ مرة واحدة, بالصدفة, في كنيسة جبّانة الشاطبي, عندما ماتت أمّي, وهي التي عرفتني بنفسها وقالت إنها تزوجت, وخلّفت.

الباب الزجاجي الذي كان يفضي إلى ناحيتنا في البيت أمامه بالضبط, في آخر الفسحة الطويلة, بابٌ مماثل تمامًا يفتح على غرفة المعيشة المشتركة الكبيرة التي فيها ماكنة الخياطة السِّنْجر, والبوريه الرخامي, وكنبة اسطمبولي أخت كنبتنا, وكراسي الطقم الجديد الذي صنعه خالي سوريال عند زواجه, والمائدة البيضاوية الرخامية التي حفظت عليها جدول الضرب والإملاء الإنجليزي, وفيها أيضًا يضع جدي ساويرس بوص الصيد الطويل وعدّته.

وتنفتح هذه الغرفة على الشرفة التي لها سور حديدي مشغول وتطلّ على مدرسة البنات, ووابور الطحين, ونرى منها, على جنب, دوران الترام في آخر محطة له, والكركون, والجنينة الغامضة ذات الشجر الكثيف الذي تسقط فروعه الملتفة على الشارع. وكنت أحب أن أجلس فيها وأطلّ من بين حديد السور على شارع 12 الواسع المسفلت النظيف, وعلى حائط المطحن العالي الأصفر, وحديقةِ مدرسة البنات.

وغرفة المعيشة لها باب داخلي, على اليمين وأنت داخل, يؤدي إلى غرفة جدي ساويرس وتنام فيها جدتي وخالتي وديدة وخالتي سارة, وتطل على الحوش المزروع.

وكانت ستي أماليا, بقدّها النحيل وحيويتها التي لا تنضب وكلمتها التي تمشي على الصغير والكبير, هي التي تُظلّل هذا العالم المتضافر المتنافر, وتحكمه وتسوده برفق, ولكن بحزم وتمكّن.

هذا البيت الذي يموج بالحركة والناس والزياط والنقار والثرثرة والخناقات والطبيخ والغسيل والأقارب والضيوف والضحك وعواصف الزعيق والبكاء التي سرعان ما تنجاب والمعاكسات والحكايات, ويأوى أصحابه في الليل إلى خفاياهم, كان مع ذلك واسعًا عليَّ بل موحشًا عندي لا أجد فيه من هو في سنّي. عندما كان ابن خالتي وطواط يأتي كنت أهرب معه ونلعب على السطح, ولكنه راح الآن. لذلك كنت أحب أن أذهب إلى بيت خالتي لبيبة لكي أطلع مع اسكندرة إلى السطح الذي تُعرّش عليه تكعيبة (عريشة) **العنب الطويلة المورقة, في الصمت المظلل بحفيف ورق العنب.**

كنت, أحيانًا, أستيقظ من النوم مبكرًا, وأجري إلى باب غرفة خالي سوريال, أطرقه بخفة حتى لا أوقظ أحدًا آخر. ومهما بكرت في اليقظة كنت دائمًا أجد خالي سوريال قد أفطر ولبس ويستعد للنزول. ولكنه يقول لي: تعال أدخُل.. اقعدْ افطر مع مَرَة خالك. وكانت هذه الغرفة ضيقة قليلاً, محصورة, نافذتها الوحيدة يسدها الدولاب الجديد ببابه الواحد الذي تشغل واجهته كلّها مرآةٌ عريضة تردد صورة السرير وعليه المفرش الساتان الأحمر الداكن اللامع, والسجاد البُنيّ المحروق الكثيف الوبرة الذي يدغدغ باطن رجليّ الحافيتين. وكان فيها مصباح كهربي عالٍ له شُعَب مضيئة دائمًا في النجفة المتعددة الأوراق, حمرتها فاتحة وفيها عروق بيضاء متعرجة. وكانت الغرفة تثيرني كلما دخلت إليها, بأثاثها الجديد الذي تفوح منه رائحة اللوستر (مادة طلاء الأثاث الخشبي) **النفاذة, والمراتب** (الحشايا) **القطنية العالية واللحاف الريش المنجد بساتان من لون المفرش, أحمر داكن فيه غُرَز مدفونة ماكرة الصنعة, وعَبَق الجنس وسره المغلق ينضح به وجه امرأة خالي الصعيدية الصموت, مدورًا وغضًّا وبه آثار الزواق الخفيف على شفتيها المكتنزتين, والكحل كأنه طبيعي في عينيها السوداوين العميقتين.**

وكانت تلبس روب دي شامبر بالدانتيللا, ضافيًا وسابغًا على قميص نوم من نفس الساتان الأحمر الداكن, فتحته واسعة على صدرها الأسمر الوفير, ولم أكن رأيت شيئًا مثل هذا من قبل, وكأنما كانت خجولاً من هذا السر نفسه وكأنما كانت تخفي هذا الخجل عندما تناديني إليها, فيرفعني خالي سوريال إلى السرير جنبها, وتضمني إليها فأنشق منها رائحة الحمّام والصابون المعطّر ونفح الجسد الأنثوي الجديد اليقظة, وتعطيني بيضة مسلوقة مقشّرة من الطبق الذي على الكومودينو جنب السرير, أو بسكوتة بالمربّى, وتعزم عليّ بشفطة شاي باللبن من الكوب الذي تشرب منه.

ويخرج خالي سوريال وهو يقول لي: خلّ بالك على مَرَة خالك, مِن الغَجَر دول.. أنا سايب معاها راجل أهوه. ويضحك ضحكة صافية ليس فيها سخرية بل إعزاز وحنان أبويّ. وكنت أفهم أنه يشير إلى معاكسات

خالتي سارة والنظرات الفاهمة المعابثة التي تحدجها بها خالتي وديدة, وأحس بالفخر والقوة.

وكان خالي سوريال نحيلاً وقصير القامة نوعًا ما, ولكنه قويّ والعَضَل في ذراعيه مفتول جاف ومضلّع كأن فيه طاقة خفية, وضحكته عريضة كالماء البللوري الرقراق ويعشق عروسه الجديدة بنت عم عبد المسيح, الصعيدية الحنون المليئة الجسم. كان نجارًا وعنده محل في شارع الرند, مزدحم بالخشب وأجزاء الكراسي والدواليب (الخزانات) **والترابيزات** (الطاولات)**والعدد, وكان يُخرج البنك الكبير إلى الشارع الهادئ يشتغل عليه بالفارة أو المنشار, والمسامير في فمه, والقلم الرصاص خلف أذنه.**

وعندما كبرت جدًّا صنع لي مكتبًا كبيرًا كنت أذاكر وأرسم عليه وأنا في كلية الهندسة. وكانت امرأة خالي مارية هي التي أخفيت عندها مكتبةً كاملة من الكتب الثورية والمجلات الممنوعة والمخطوطات والمنشورات قبل قيام حرب فلسطين سنة 1948, وعندما اعتقِلتُ أحرَقَتْها كلها في الفرن الذي يخبزون فيه على سطح بيتهم وراء الكركون تمامًا, حرصًا عليّ. وعندما خرجتُ من المعتقلات لم أرها إلاّ لمامًا حتى ماتت بعد خالي سوريال, وبعد أن زوَّجت كلّ أولادها, وما زلتُ أذكرها, صموتًا وجميلةً وعميقة العينين, بمحبة, وأبتسم عندما أذكر كيف كان جدي ساويرس يقول عنها: الصعيدية بنت الصعيدي, ولكنه لا يقول ذلك أبدًا على مسمع من أبي.

كان جدي ساويرس قائم العود, وجهه طويل ووسيم وواضح التجاعيد لوّحته الشمس بسمرةٍ خاصة صحيّة, وكان يدهشني, عندما يشمر كميه ليغسل ذراعيه تحت حنفية الحوض, أن أجدهما, فوق الرسغين, بيضاوين جدًّا. عرفت عندما كبرت أنه كان باشكاتب حسابات قدّ الدنيا في البنك الزراعي في شبراخيت, وأنه استقال في عز كهولته ليعود إلى أرضه في الطرانة, وأنه أنفق عن بذخ على الشّرب والأكل والمَضْيَفة, ورَهَنَ الأرض ولعبَ على القطن في البورصة, حتى لم يعُد له إلاّ قراريط (وحدة قياس غيرة لقياس مساحة الأرض)**, ثم حَمَلته ستي أماليا على أن يؤجّرها ويعود ليعيش مع أولاده وبناته في غيط العنب.**

وعندما خلّف أخوالي عيالهم الكِثار وانتقلنا نحن إلى بيت شارع الكروم أمام اصطبل العربات, عاد جدي إلى الطرانة, وبعدها بقليل نشبت الحرب, وكنا نذهب أنا وأخواتي إلى الفلاحين عندهم في إجازات الصيف.

أيامها كان مزاجه صيد السمك. كان يخرج كل يوم إلى المحمودية أو الملاّحة, ويقضي ساعات في غرفة المعيشة الكبيرة, بعد الظهر, في نور البلكونة, يصلح سنانير الصيد ويضبط بَكَراته ويُشذّب الفلينات المدوّرة السوداء ويقطعها بمطواته الكبيرة ويركّبها في الخيوط الرفيعة المثنية الملفوفة بعناية ويقطع بنفسه أطوال البوص وأنا أراقبه مسحورًا.
وعلى وجه الصبح, كلّ يوم على الله, يخرج وعلى كتفه البوصة الخيزران الطويلة الناعمة, بعُقَدها المتتالية العريضة لونها أدكن مصفرةً وأخشن من ساق البوصة, والمخلاة القماش التي اسودّ لونها فيها الصفائح المدوّرة الصغيرة ذات الأغطية يتقلب فيها ويتلوى بعضه على بعض دود الطّعْم والجمبري الصغير الشاحب البياض, ويعود على العصارى وفي المخلاة رزق اليوم: قرموط كبير مفلطح الرأس شواربه الطويلة تلعب وجلده اللزج أسود على أبيض, أو البلطي الفضيّ القِشْر بلون الصَّدَف

المزرقّ المبلول, أو حتى البساريا التي أفرح بها جدًّا لأن ستي أماليا تقليها وتعطيني منها, من وراء أمي, جافةً محمّصة سخنة في الزيت الفرنساوي تُقرقع رؤوسُها الهشة, تحت أسناني, بلذة.

وعندما كنت في مدرسة الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية سألني منصور أفندي الناظر عما يشتغل أبي, فقلتُ بصوت خجولٍ وبلا اهتمام: تاجر بيض وبصل في شارع أنسطاسي. فلما سألني ماذا يشتغل جدّي ساويرس قلت بفخر وكبرياء, وبصوت عالٍ سريع: صيّاد سمك. وغضبتُ منه جدًّا في سرّي عندما ضحك بصوت أجش وحانٍ, ولكني لم أغضب طويلاً فلم أكن أسمعه يضحك أبدًا.

ولم يأخذني جدي ساويرس معه للصيد, أبدًا, مع أنني كنت أطلب منه باستمرار, بخجل وتردد في الأول, وبإلحاح وبكاءٍ بعد ذلك, ثم من غير أملٍ أخيرًا, ولكن من غير جدوى في كل الأحوال.

كان جدي ساويرس يطلب مني أن أنزل في الليل أشتري له حُقّ الدخان أبو غزالة, من البقال الذي على أول حارة من اليمين, بعد وابور الطحين. وكنت أحس الدخان طريًّا ولدن القوام من وراء الورق الخشن الداكن الخضرة, وعليه رسم الغزالة بالخط الأسود تطير في الهواء بحُريّة, رافعة الرأس, ساحاتها فسيحة. وأسعد بها, وبالشارع المنير وهوائه الرحيب والبيوت النائمة أنوارها صغيرة تبرق وتتخايل من وراء الشبابيك, وأنسى, عندئذ, محنة العودة, وعبور العتبة, وطلوع السلم.

لأن الدور السفلي من البيت كان مقفلاً, ومهجورًا طول إقامتنا فيه. مِمّن سمعت أن امرأةً قُتلت فيه, من زمان, بسبب العرض؟ ذبحها زوجها بالسكين, كما تذبح أمي الفراخ أو البط, من غير أن يذكر عليها اسم الله. وحبسوه, ولم يُفتح البيت من يومها. ولم أكن أفهم تمامًا ما العرض ولكني أعرف بالتأكيد أنه من أسرار النساء. وكنت أحيانًا, وأنا نائم في عز الليل أسمع الأنين الأنثوي الملتاع الطويل, يصعد إليّ من تحت, وأسدّ أذنيّ وأدخل تحت اللحاف, وأسقط في النوم بسرعة.

كان السلم في الليل مظلمًا ومخيفًا, وفَسَحة الباب معتمة ويهب فيها هواء رطب كأنه أنفاس حية, ترعبني, وأحس صاحبتها تترصدني من وراء باب شقتها, وتهم بالإطباق عليّ. وعندما أدخل من الشارع يواجهني باب الشارع الخشبي الثقيل المشغول, تحت شرفتنا, دائمًا غامضًا, وكأنني أدخله لأول مرة. أستمد الشجاعة من عمود مصباح الغاز في الشارع, الذي يدخل نوره قليلاً من العتبة إلى الداخل ثم ينقطع في ظلامٍ دامس وسكون. أضع رِجلاً على العتبة ورجْلاً في الخارج, وأنادي, كلّ مرة, بصوتٍ مرتفع فيه كلّ شحنة شجاعتي, أنادي باسمي أنا, بإلحاح, دون توقّف, حتى يظهر النور المهتز من باب بيتنا فوق, تحمله أمي أو خالتي سارة أو امرأة خالي إستر التي أحبها, وتتراقص شعلة اللمبة نمرة خمسة (مصباح بترولي) على السلالم والدرابزين, فترتدّ الأشباح وتنحلّ المفازع, وأسمع الصوت: اطلعْ.. تعالَ.. يا للّه; فأصعد السلالم وثبًا, أربعًا أربعًا, وقلبي يخفق, كلّ مرة, بالفرح.

كنا في ليلةٍ في أول الصيف, العالم قد خلا فجأة, أصبح مَخُوفًا. صفارات الإنذار تُعول عويلاً موحشًا, سمعت الكلاب تنبح, بصوت مرتفع, في السكون, والظلام الذي سقط.

نزلنا السلالم مسرعِين, من بيتنا, في حارة الجلّنار, إلى راغب باشا. كنت أمسك بيد أختي هناء من ناحية, وأختي لويزة من ناحية أخرى, وكانت أمي تحمل أخي ألبير الصغير, وأبي قد لبس البالطو على جلابيته البيتي البيضاء, ومعه أختي عايدة, صامتة وخجلة قليلاً من أنها كبرت الآن ولم تعُد طفلة. وعبرنا شارع راغب باشا, وكان معنا جماعات صغيرة من الناس يتحدثون بهمس, ودخلنا من ميدان صغير في تقاطع شارع إيزيس وشارع صغير لا أعرف اسمه, ودخلنا من الفناء الصغير إلى باب الكنيسة الإنجيلية المبنيّة بالحجر الأحمر, ووقفتُ بالباب بينما نزل أبي وأمي وأخواتي إلى البدروم المتين الصلب الشكل.

كنا نعرف أن باب سِدْرة قد ضُرب, أمس, بطوربيد, ونشرت الأهرام والمصري والبلاغ خبرًا واحدًا وبنصّ واحدٍ معًا, أنه انهار بيتان كانا آيليْن للسقوط وأنه لم تحدث خسائر في الأرواح وأصيب ثلاثة أشخاص إصابات طفيفة. وكنا نعرف أن العمود, صباح ذلك اليوم, قد غصّ بالجنازات المتتالية وأن الكنيسة في جبّانة الشاطبي أيضًا قد ظلت أجراسُها تدق طول الصباح, وأن العديد واللطْم والشلْشلة (ندب الميت والعويل عليه) قد فاض من بين البيوت والأنقاض, وأن صلاة الموتى والغائبين قد أقيمت في جامع سيدي المرسي أبي العباس وفي الكنيسة المرقسية في وقتٍ واحد معًا. وقال أبي إنه في طريقه لشغله رأى فتحة واسعة غائرة ظهَر الماء في قاعها, على دَوَران البياصة (دوار الميدان), ورأى, من خلال كوردون (صف متراص من الجنود) عساكر الجيش المُرابط (فصيل من الجيش مخصص للخدمات), الحيطان المتهدمة والأنقاض والأحجار المتراكبة, وإنه رأى بينها سراير حديدية متلوية ومحروقة عُلِّقت بها جلاليب وفساتين كأن أصحابها قد خلعوها الآن فقط.

كانت السماء فوقي قد أصبحت شاسعة ومخيفة, تحمل الموتَ في بطنها, الموتَ محددًا وضاربًا وثقيلاً ونهائيًّا. وكان نور القمر قاسيًا في سطوعه الفسيح. وانطلقت أسنّة الأشعة الكاشفة سيوفًا طويلة متحركة من النور القاطع, آتية من أطراف المدينة ومن وسطها معًا, تدور في الزرقة الصافية الحريرية, تتقاطع وتتجاذب وتتفارق وتتلاقى أطرافها لحظة وتتركز في نقطة واحدة وهّاجة ثم تنْشَعِب, تجوس في بطن السماء المغلقة عليها, تبحث عن بؤرةٍ مُراوِغَة بينما طلقات الآك الآك الرفيعة الثاقبة المتعاقبة تطقطق دون توقف ثم تنفجر في ورود حمراء معدنية تتناثر شظاياها على الفور وتنطفئ, وهدير محرك الطائرة بعيد وعالٍ ولكنه مسموع بين انبثاقات الطلقات من المدافع المضادة للطائرات, في الصمت الذي يجعل المدينة أكثر شفافية واتساعًا, من الأنفوشي إلى المندرة والمنتزه, من الرَّند والبَان والنخيل في غيط العنب إلى اللّبّان ورأس التين وأنسطاسي, من جليمونوبولو وزيزينيا إلى ستانلي والنزهة والورديان, من حجَر النواتيّة إلى كوم الناضورة, من سِيدي جابر وسِيدي بشر وباكوس إلى سموحة والمكس, ومن محطة مصر والرصافة إلى مصطفى باشا عَوْدًا إلى عزبة الصيادين. كانت حَبَّات إسكندرية عارية مطروحة, تغطيها فقط أسنّةٌ من شبكةِ الأشعة التي تطعن السماء.

في تلك الليلة, عندما نزل الطوربيد من الطيارة الطليانية, على مقام سيدي أبي الدردار, لم يصل إلى الأرض أبدًا.

قال شهود العيان إنه بينما كان الجسم الضخم يهبط ويتقلّب, حافته المدببة مصوبة إلى الأرض, ويومض تحت القمر بلمعةٍ شريرة, انشقّت

قبّة المقام الخضراء, وسط تعريشة العنب المورقة المسوّرة بسور رقيق من الحديد, ثم التأمت على الفور, وصعد منها الحضور الأكرم لوليَّ الله. وكان من الصالحين, يفدي عُزوته وكل أبناء مدينته البيضاء المحروسة, والبُرْنُس المغربيّ السمنيّ الهفهاف ينفتح كالجناحين في الهواء, ووجهه كالبدر الطالع يكسف بدر السماء, سناه يُعشى الأبصار, وفاحت رائحة المسك والعنبر المدفون في المقام المصون, وإنه بسط ذراعية فإذا هما عريضتان, نورانيّتان, وتلقّى في حضنه الطوربيد الهائل المندفع كالصاعقة فإذا هو برْد وسلام, وطار به كلمح البصر أو أسرع فوصل به في الحال إلى أكمة الشلاّلات العالية الخضراء الخالية من الناس, ووسّده الأرض على جَنْبه, وقد نزع شِرّته وأذاه, فرَقَد بين الشجر الملتف الأغصان حديدًا باردًا ميتًا بلا حول ولا قوة. وَجَده الناس في أول الصباح فتوافدوا عليه ألوفا مؤلّفة, وفككوه دون ضرر ودون عناء, وكلّ واحدٍ أخذ منه قطعة حديد خُردة للبَرَكة والعِبرة. وعندما وصل رجَال الجيش المرابط وضربوا نطاقًا حول المكان لم يكن قد بقي من الطوربيد المهول إلاّ قطع صغيرة هشة من الصفيح, وكومة باردة مفتتة من البارود تشبه الفلفل الأحمر المطحون.

ثاني يوم قال أبي إن إسكندرية أصبحت خطرة على الأولاد, وإن لقمة العيش وحدها هي التي تبقيه هنا, فقالت أمي إنها لن تتركه وحده أبدًا. وسافرت أنا وأخواتي جميعًا إلى بيت جدي ساويرس في الطرانة, فيما عدا ألبير الصغير الذي بقي مع أمي, ومات بعد ذلك بسنتين بالتيفود.

وكنت قد عرفت الطرانة وجئتها في الصيفين السابقين وعرفت لندة وأختها رحمة والولد برسوم وبقية العيال, ومنهم الولد مخلوف ابن الشيخ عيسى جارنا في نصف القرية الذي لا يسكنه إلاّ النصارى, وحدهم تقريبًا, مع أن الكنيسة تقع في النصف الآخر, بالقرب من السراية الكبيرة التي ضرب فيها أنيس أفندي نفسه بالنار. وعرفت التجوال الطويل على المدقات الترابية بين الغيطان العالية بالذرة, لغاية الطاحونة وما بعدها, وعلى جسر النيل, واللسان الحجري الداخل منه إلى عرض النهر الواسع, أقف على طرفه, بين الأمواج والدوّامات, وأنادي منه جنيّة البحر التي لم تطلع أبدًا هناك.

(...)

عندما عدت على أواخر العصاري, بعد أن لبست شبشبي وطسست وجهي بماء جارٍ حفنته من عند اللسان الحجري في النيل, ونفضت التراب من على جلابيتي البيضاء التي كان طرفها السفلي قد ارمدّ وابتلّ بالتراب المنعقد ولم تنفع فيه حيلة, ودخلت البيت, ناداني جدي ساويرس بصوتٍ كنت أتوقعه.

عندما اقتربت منه, متوجسًا ومتماسكًا, سألني ماذا كنت أعمل في الزنقة مع البنت لندة؟ فقلت كنا نلعب كلّنا وليس فقط لندة. نظر إليّ بعينين نافذتين وعارفتين وصلبتين, وبدون كلمة ارتفعت يده وأحسست صدمة الصفعة الأولى والأخيرة في كلّ صباي. الوحيدة من أي أحد, بقوتها المفاجئة, ووقع الإهانة وسخونتها أكبر بكثير من ألم الضربة ولذعها, وكنت أسمعه, من وراء غيامة الغضب وحرارته, يقول إننا كبرنا جدًّا عن لعب العيال, ويتكلم عن الأصول وألسنة الفلاحين التي لا ترحم البنات. تركته واستدرت. وصعدت إلى الجميزة (شجرة مثمرة), عاليًا, إلى البقعة العريضة التي كنت أختبئ فيها, منذ سنتين, وأترك نفسي لحلم

الشجرة الوارفة وسماء النهار التي تغلّفها وكأنها تنزل إليها وتُحيط بي, وأنا أرتقي إلى الجذع العريض المُمتدّ بين الفروع, يَسَعني ويحملني بثقة.

وكنتُ أسمع أصوات البيت من تحتي والشوارع الملتوية الضيقة في القرية والناس والبهائم والكلاب كلها بعيدة ولكنها موجودة. وكان غضبي تخامره كبرياء وعزة من معرفتي بأن تلك اللحظة لم تكن مسروقة تمامًا, ولا جاءت بالصدفة تمامًا, بل كانت بمعنى ما مُدبَّرة ومطلوبة.

وكانت ظلال الورق والهواء المنعش في أعلى شجرة الجميز المعزولة عن العالم, تهدهدني, ولعلني, بالرغم من الجرح, كنت قد نمت.

في 12 بؤونة (أحد أشهر التقويم المصري القديم) من سَنَةٍ قديمة, كنت في قاعة مدرسة الأحد في مبنى الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية. كنت أحب صوت مس كاترين النحيفة الطويلة البيضاء الوجه, جسمها كأنه نورانيّ في فستانها السابغ الأبيض المرسوم بزهور دقيقة حمراء فاتحة, وهي تُعلّمنا الترانيم في الغرفة الواسعة المعتمة قليلاً, فيها دكك خشبية طويلة صفراء لامعة, وصلبة. وكانت القاعة رطبة الهواء قليلاً, فيها شموع موقدة تحت أيقونة العذراء, بثوبها الأزرق الملفوف على كتفيها, تنظر إلينا نظرة غائبة, واسعة العينين جدًا, وهي تحمل على حِجْرها الطفل البضّ المدملج الجسم, سعيد النظرة وعورته الصغيرة عارية وبريئة وطبيعية وتدعو قلبي للحنان.

(...)

كنت قد خرجت من عتمة القاعة المهتزة بالشموع في مدرسة الأحد, إلى نور الشارع الدافئ المظلل بالشجر, وفي عينيّ حلمٌ بكنز مَجْدٍ في السماء. والهواء شفاف وله رائحة خفية مخضّرة من أغصان العنب, وجريت إلى بيت خالتي لبيبة. كنت أعرف أنها عندنا في البيت. وكانت اسكندرة تنتظرني لامعة العينين, خدّاها مضرّجان.

مددت ذِراعِي إلى آخرها تحت سريرهم وتكورت يدي حول جسم البوصة الطويلة الرفيعة والدوبارة الملفوفة حولها, وفي آخرها فلينة وسنارة صغيرة.

كنت قد انتقيت أصغر بوصة عند جدّي ساويرس, وتسللت بها مبكرًا جدًّا, يوم الأحد, قبل الكنيسة, وأخفيتها عند اسكندرة. وخافت هي أولاً ثم ضحكت ووضعتها على الأرض تحت سريرهم.

ولما سأل جدي ساويرس عنها ونادى, بغضب: فين البوصة الصغيّرة يا ولاد؟ هربت إلى غرفتنا في آخر البيت, وسكتّ. ومع ذلك فكنت أصلّي للمسيح بحُرقة أن يغفر لي, وكنت واثقًا بأنه غير غاضب مني. ويئس جدي من البحث عنها, وسلّم أمره للّه, وكان متحيّرًا ولكنه لم يسألني قط, مباشرة.

وكانت اسكندرة قد نبشت تحت ردغة الأرض المبلولة تحت حنفية الماء, وتحت شجرة التوت الكبيرة في حوش بيتهم, واستخرجت الدود اللزج الدسم الشكل, ووضعَتْه في حُقّ صفيح مستطيل وأخفَتْه تحت السرير, جنب البوصة, فأخذْتهُ, بسرعة, وأخذْتُ اسكندرة من يدها, وخرجنا.

جرينا في الشوارع الخالية تقريبًا, ومررنا أمام زرائب الجاموس برائحتها النفاذة وأقراص الجِلّة الطرية تجف في الشمس أمامها, بعد صف من صفائح اللبن الضخمة المرصوصة, فارغة, ونفذنا من ثقب ضيقٍ كنا نعرفة في سور السكة الحديد, وعبرنا القضبان وسرنا بين الهيش والحلفاء والبوص والزلط حتى وصلنا إلى شط الملاحة المترقرق الضحل, والماء عليه ساكن وفضيّ وثقيلُ الشكل.

ومشينا قليلاً بحذاء الشاطئ حتى وصلنا إلى مرتفعٍ رمليّ صغير وفي رملِه حصًى مضلّع ومتراوح الأشكال, مدبب ومنبعجٍ ومدوّر ومسطّح, يعطى للرمل استمساكًا وقوامًا, وتحت المرتفع جونة ماء عميقة تبدأ صغيرة عند الشطّ ثم تتسع وهي داخلة في الملاحة, لونها أكثر زرقة وماؤها يترجرج بسيولةٍ أكثر, وكانت الشمس قد بدأت تحمى. وجلست اسكندرة بجانبي على ركبتيها, فوق أكمة الرمل, فاحمر جلد ساقيها من الحصى الصلب الأملس, بينما وقفتُ وذهبت حتى حافة التلة الصغيرة وخلعت حذائي وأدليت رجليّ حتى أوشكت قدماي - اللتان أحسست فجأة برطوبة الهواء عليهما - أن تلامسا الماء.

رشقتُ جسم الدودة المتنزية الزلقة بين أصابعي, في سن السنارة الحادة التي نفذت من الناحية الأخرى, ورفعت البوصة, وسقطت السنارة في الماء وطفت الفلينة بعد لحظة, باهتة اللون في فضة الماء السائلة. وانتظرت.

ماذا حدث؟ كيف سقطت؟

أحسست نفسي في الماء, وكأنني أطفو, ثم أغوص بهدوء في عُمق يبدو أنه من غير قرار. وكان الماء حولي دافئًا ومحيطًا وحنونًا وشاملاً ومن غير نهاية, ولم أكن أشهق ولا أطلب النَّفَس ولا أتخبط, ولم أكن قلقًا ولا مرتاعًا ولا مختنقًا. وكان هذا العنصر الرفيق الثقيل يحملني ويسندني في نزولي الذي لا زمن فيه. والضوء حولي داكن وشفاف معًا, رازحٌ ومُشعٌّ معًا, كأنني في غرفةٍ مائيةٌ شاسعة المدى, وخصاص نوافذها تنساب منه صفحاتٌ رقيقة النسيج متتالية من النور والماء ممتزجيْن معًا. وكان سطح الماء فوقي يومض بإبَرٍ فضية دقيقة ومتموجة لا عِداد لها, تظهر وتختفي.

الماء يتخلّل تكعيبة العنب, ويغمرها, والعناقيد الثرّة داكنة الحمرة حَبَّاتها الغضة المدورة ملتئمة متضامّة بعضها حول بعض, وتتدلى كأنها نهود متضرجة كثيرة ترفعها الموجات الصغيرة برفق بين يديها, والورق حولها وفوقها شفاف الخضرة تتلوى عروقه خيوطًا لدنة متشرِّجة الالتفافات, يمر بها الماء فتهتز, مُطاوِعة ومستسلمة, من الأغصان المبتلّة العُقَد. وعلى الموج المضيءِ وجهُها, بين ظلال تعريشة العناقيد والأوراق والأغصان المتعرجة, خمريّ اللون ورخيمًا, يصعد إليه ويُنيره في السيولة, مِن تحت, إشعاعُ نورٍ متّقد في قلب الماء, من شمعةٍ كبيرة ذُبالتها المشتعلة يهتز بها الموج, كأنها أيقونة مخضلّة البشرة, وفيها حياة أخرى, وشعرها الذهبي مفكوك مسترسل منثور ومليء الخُصَلِ يحمله الماء فيصطدم بوجنيتها دون صوت, وقد أخذ لونه يدكن قليلاً من البلل, ويميل إلى لون الكهرمان المحروق المشعّع بالنداوة, والماء يذهب ويجيء, في مُوَيْجاته الصغيرة, بصفحةِ الوجه الساجي, عيناها نجلاوان, من غير تعبير, ولكنهما تعرفانني, وتنظران إليّ, فقط. وكأنها تطل عليّ, وجسمها فوق, بعيد عني, من عالمٍ آخر, فيه رقةُ السماء المفقودة

وحنان الهواء الملحى البعيد, والماء الذي يحتضنني ويتفتّح لهبوطي بلا انتهاء, يذهب بها, ويجيء. ولم يكن الغوص إلى تحت قاسيًا ولا خانقًا, وكأنني لا أقاومه, بل كأنني أقْبله وأسْلم إليه نفسي.

لم أمد إليها يدي, ولم أنادها, كنت أعرف فقط أنها هناك.

قال: أنتِ الشجرةِ التاسعة. أنتِ الريح على المياه العميقة. أنت أَكَمةٌ مورقة بالأشعار ومزهرة بورد البريار.

الكرمة السماوية لا يأكل من عناقيدها إلاّ المغبوطون.

(...)

أُوزير واقف في هيكله, مطويّ الذراعين, مكفّن بالبياض, والعناقيد تتدلى في اتجاه وجهه المنحوت من الديوريت الأخضر, قريبة جدًّا من فمه الظامئ.

قال: وعرفت أنه سيكون ما لا بد أن يكون, وأنني في الزمان الثاني سوف أُمنح أن أنهل من جَنْي العناقيد, لأن العنب قد نضج.

سقطت حبات العنب من عيون الصقر حور, ونَطَف الدمُ من العناقيد.

رفرفة الحمام المشتعل

كان الطفل يجري إلى بيت أم توتو (الجريجية) (اليونانية) **في تقاطع شارعي البان والنرجس, كأنه يلوذ بمكانٍ مسحور.**

لم يكن في حسّه, تمامًا, معنى أنها (جريجية).

كان الاختلاف حينئذ, عنده, من طبيعة الأشياء.

كان يشتري الفول من (التركي) بشاربه الأبيض الكبير المصفر قليلاً عند أطرافه من الدخان, وكان عندما يدخل بيوت جيرانهم المسلمين يحس شيئًا من الرهبة. وكان الكونستابل (رتبة لشرطة السير البريطانيين) **المالطي الذي ينطلق بالموتوسكل في شارع الترمواي, يوقف عربات الحنطور والكارو ويرسل الخيل والحمير الجريحة المقرَّحة الجُنوب إلى الشفخانة** (المستشفى البيطري) **ويشتم العربجية شتيمة بذيئة ويشخُر** (يصدر صوتاً من أنفه للاستهزاء) **لهم بالإسكندرية الفصحى. وكان عم حسن التونسي بيّاع اللبن يسكن في حارة وراءهم, وعنده في البيت ثلاث جواميس وحمار أبيض فاره ويلبس البُرنس المغربي السمني الناصع يلقي طرطوره وراء**

عنقه. شعره الناعم أبيض ولحيته بيضاء كاللبن. وكان زوج خالته عم مقار أسود لامع السواد, وكان هناك الصعايدة في الزرائب, وفي وابور الطحين. والفلاحون الذين يبيعون الخصّ والجرجير والليمون والكرّات على حميرهم, لا يلبسون إلاّ قميصًا داكن الزرقة قصيرًا مربوطًا بحبل على الوسط.

والصيادون بلباسهم الإسكندراني الأسود المنفوخ والصديرية ذات الأزرار الكثيرة على الفانلة الطويلة الكمّين, يبيعون السمك في مقاطف من الخوص المجدول يحملونها على رؤوسهم المعممة بطاقية صغيرة ملفوفة بالشاش الأبيض عدة مرات. والأفندية بالجاكتات الطويلة والبنطلونات الضيقة في آخر الرجلين. وكانوا جميعًا يجعلون العالم مكانًا غنيًّا ومتقلب الألوان, مخيفًا إلى حد ما, وجذابًا أيضًا.

كان بيت أم توتو من دورين, ولكنه عال, يحسّه دائمًا مغلقًا على سره, منيعًا, متين الحجر, نوافذه كبيرة خضراء, وله سور صغير من الحديد المشغول يحيط بجنينة صغيرة مزروعة بعناية, فيها شجر نبق ملتف الفروع وارف, غليظ الخشب, وشجرة موز واحدة, قصيرة, أوراقها عريضة, غضرة, سميكة, ومشققة مشعثة قليلاً عند حوافها المصفرّة.

وكان أمام البيت دكان جزارة كله مبلّط بالقيشاني, الجدران والأرض تلمع, وأنصاف العجول والذبائح الأخرى مشقوقة, مفتوحة البطون, بأقفاصها العظميّة الداخلية الفاتحة الاحمرار, معلقة بخطاطيف أمام الباب تحت اليافطة الزجاجية السوداء المكتوب عليها بخط ثلث ذهبي فخم طويل الحروف, كان قد تعلم القراءة وربط الحروف, وقرأ: جزارة محمد محمود البهنساوي.

وكانت أمه هي الوحيدة من بين خالاته التي تزور أم توتو وتحبها, ويحس كأن بينهما نوعًا من الفهم, ويتحدثان معًا طويلاً, بهمس, بينما يذهب إلى غرفة توتو الصغيرة التي تكبره قليلاً في السن وفي الجسم, ويناديها باسمها الأصلي كاترينا لأنه كان يحب مدرسته مس كاترين, فتضحك البنت, وتعطيه ليأكل البرقوق المسكر المجفف الذي يستطعمه بلذة, يستمرئ جسمه اللين المتغضن, المحمر, الملتف على نواته الصلبة, الغارق في عسله الداخلي الناشف.

كانت أمه تتركه أحيانًا, بعد ظهريات بأكملها, عند أم توتو, وتذهب لزيارة حبايبها أم فلة, أو أم أليس, ولا تعود إلاّ عندما يهبط الليل.

لماذا ذهبت أنا يومها إلى بيت أم توتو؟

قالت لي ستي أماليا بصوت غضوب ومكبوح: رُح انْدَه خالك يونان من عند اللي تتقرص في بطنها أم توتو الجريجية. قل له يجي لي عايزاه.

فتحت لي أم توتو الباب, وأزاحت الستارة الكروشيه (نوع من نسيج الخيوط بالابرة) **المخرّمة التي تنسدل عليه مباشرة من جُوَّه, أحسست خفة جسم الستارة عليّ واهتزازها, ونسيت غضبي من ستى عندما انحنت عليّ أم توتو, بوجهها الأبيض الرفيع الدقيق الملامح وقبلتني في فمي قبلة خفيفة, بحركة ألفةٍ وحنانٍ بسيط خالص, كما تفعل دائمًا, كما لا تقبلني أمي أبدًا. وملأت صدري بعبق عطرها النافذ ورائحة جسمها النظيف والبودرة التي لم أكن أشم فوحها الخاص إلاّ عندها.**

قلت لأم توتو: عايز خالي يونان في كلمة.

قالت لي, حانية: عاوز تقول له إيه حبيبي?

وكان في نبرتها أهْون إيحاءات لهجة الجِريح, كانت بنت بلد, تقريبًا, في كلامها, ولكن برقة خاصة, وأقل تخفيف للأصوات الحادة.

قلت لها, خجلاً: عايزه في كلمة سر.

فابتسمت بعذوبة, وتسليم.

خرج خالي يونان من غرفةٍ داخلية أقفل بابها وراءه, وجاء إلى الفسحة وهو بالقميص الحرير المخطط بأقلام زرقاء رفيعة, من غير ياقة, والبنطلون الذي له حمّالات أستيك طويلة, وفي يده جاكتته. كان فارع القامة, خطواته هادئة بطيئة الوقع, وسيم السمرة, شامخ الوجه, ومال برأسه قليلاً إليّ يسمع ما عليَّ أن أقول, وأجاب في غير تعجل ولا سخرية ولا غضب: أوامرك يا سيدي حاضر. عِينيَّ, بس كده.. طب اقعد أنت هنا عند خالتك أم توتو.

وقال لها بصوت كان فيه شبهة ابتسام: هاتي لي الياقة والكرافتة من جوّه. أخطف رجلي أشوف عايزين إيه وراجع حالاً.

ووضع الياقة المدورة الصلبة البيضاء حول عنقه, وزررها بدبوس صغير لامع, ولف الكرافتة.

وكنت أعرف أن ما بينهما شيء خفي أحبه ويشوقني ويسحرني.

كان واضحًا أنها أيضًا تستعد للخروج, فأومأت له, وقالت إنها ستنتظره على كل حال.

كانت في عز ازدهارها, نحيلة الوجه, رقيقة الجسم. في عينيها دائمًا نظرة مطارَدة, متوسلة وتوشك أن تكون مقهورة, ولكنها جذابة, نسوية جدًّا, مطالِبة, وانحناءة حاجبيها عليهما غير واسعة, وخطهما مليء وناعم التقويس. وكان شعرها القصير ألاجارسون (قصة شعر على شكل قصة صبي) **مفروقًا على اليمين, عقصت خصلة منه على هيئة كعكة صغيرة على أذنها اليمنى, وكان لونه بنيًّا ذهبيًّا داكنًا بحيوية غضة.**

شفتاها مرهفتان سريعتان إلى الارتعاش, وأنفها مستقيم طويل. كان بياض وجهها مشوبًا بخمرية صافية شفافة, وكان نهداها صغيرين, مخروطين, تحت فستانها الأحمر الغريب الذي لم أستطع أن أرفع عنه عيني.

كان النصف العلوي من فستانها من نسيج خفيف هفهاف, واسع الفتحة عند أعلى الصدر. وبينما كماه الواسعان يشفّان عن ذراعيها البيضاوين, ولحمهما البض قليل ومتماسك وممشوق وقد اكتسب حمرة خفيفة من لون النسيج الشفاف, كان الصدر من قماش حريري, من اللون نفسه ولكنه ساتان (نوع من القماش اللامع) **لامع غير شفاف, ينزل كالحرملة على صدرها بنقوش رقيقة. تنتهي هذه الحرملة فوق الركبتين بقليل, ليبدأ تحتها النسيج الشفاف مرة أخرى, مبطنًا بالقماش السادة اللماع حتى**

منتصف الرجلين, وكان جوربها تحته حريريًّا وسميكًا يستدير حول أسفل الساقين بضمّة متينة, وحذاؤها من الشامواه الأحمر بثلاثة شرائط جلدية فوق أعلى القدم تنتهي بزراير صدفية مدورة, كعبه عال وكبير. وكان على صدرها العاري المنبسط سلسلة ذهبية رقيقة جدًّا تتدلى بصليب مشغول.

كنت أفتكر أيامها أن توتو هي بنت خالي يونان, وكنت أتصور أن أم توتو هي زوجته, بشكل ما, ولم أسأل.

ولما عاد خالي يونان بعد قليل, خرجا معًا, وركبا السيارة المربعة القوية التي كان يسوقها, وعرفت فيما بعد أنهما ذهبا معًا إلى المصوراتي, وأن كلا منهما أخذ صورة لنفسه, وحده, وأنهما تبادلا الصورتين. ووقعت صورتها في يدي بعد ذلك بسنوات طويلة فاحتفظت بها.

وجدت نفسي وحدي في الفسحة الخالية المعتمة قليلاً, التي كانت تفتح على المطبخ مباشرة.

ومرة واحدة, وكأنما على فجاءة, فغمتني روائح دافئة شهية من حبال التين والزبيب المعلقة من مسامير فوق نافذة المطبخ, تجف في الشمس من وراء زجاج النافذة. وكانت برطمانات المربى البيتية, والفواكه المجففة المسكرة, على الرفوف, غارقة في سوائلها الكثيفة داخل الزجاج البلوري المضلع الذي يمتص النور ويعكسه من جديد مشققًا, متكسرًا. وليس في المطبخ ذبابة واحدة.

هبت نفحات غريبة باهتة الحلاوة, كأنها لم تكن هناك من قبل, من أزهار كبيرة بيضاء, عروقها طرية وقوية تبتل في الماء الصافي الذي ثبت كأنه جامد وشفاف, في فازة (زهريّة) زرقاء رقيقة الزجاج, بطنها الكبير المدور عليه رسوم تنانين حمراء وصفراء ذهبية متلوية الذيول, ألسنتها طويلة رفيعة مشقوقة نصفين منطلقة بقوة من أفواهها الجميلة المفتوحة, ونفث رائحة المفرش القديم الباهت الخضرة, الدسم الملمس, شراريبه المنقوشة الكثيرة متلاصقة تهتز حول رخامة المائدة المدورة, وأرجل المائدة الخشبية لامعة ومشغولة وتنتهي بما يشبه أقدام الأسد, مقوسة المخالب.

وسحرتني مرة أخرى, كما تسحرني دائمًا, القوقعة. بيضاء هائلة الشكل رابضة تحت الفازة الكبيرة, حلزونية وملتفة بنعومة, وفي آخر دوراتها المتراكبة التي تضيق بالتدريج, طرف مدبب طويل, لبني اللون والجلد الداخلي في القوقعة أملس محمر. حولها شقيقاتها, قواقع أصغر, سطحها الخارجي بياضه محبّب وأكثر خشونة.

جريت, كأنني أفر, أبحث عن توتو في غرفتها الصغيرة الضيقة التي لم يكن لها نافذة, وحيطانها من الأرض للسقف مغطاة بورق أصفر باهت وله لمعة معًا, وفيه نقوش وزهور حمراء دقيقة جدًّا, أوراقها محددة جدًّا, خطوطها القاطعة المسننة بلون أكثر حمرة من أجسام وريقات الزهور. وكانت توتو تلازم هذه الغرفة لا تكاد تبرحها. وجدتها تُذاكر على مكتب صغير مسند إلى الحائط, فوثبت وجلست على سريرها أنظر إليها وهي تكتب دروسها بالحروف اليونانية الغريبة على كراسة ورقها فيه مربعات خطوطها طفيفة جدًّا. أصابعها الصغيرة البيضاء تلتف بعنق الريشة المسحوب, ورأيت على أطراف أناملها بقع حبر بنفسجي اللون.

كانت توتو, على عكس أمها, مدورة الوجه باستدارة كاملة وطازجة الخدين. عيناها واسعتان في خضرتهما نقط صفراء ثاقبة متوهجة كإبر من النور. كانت صموتًا جدًّا لا تتكلم إلاّ نادرًا, ولم أرها تلعب أبدًا.

قالت توتو: تعال نطلع عند تيته.

فأومأت برأسي, ووثبت نازلاً من السرير واندفعنا نجري نسابق أحدنا الآخر على السلالم الحمراء الرخامية الباهرة النظافة, إلى الدور الثاني.

وما أن فتحت جدتها الباب حتى انقلبت الدنيا. أمسكت بيد توتو بشدة, بينما تواثبت حولنا القطط, لا عداد لها, سمينة وجافة القد, سوداء حالكة وخضراء رقطاء, صغيرة واهنة زاحفة, وشاحبة البياض, تموء وتصيء, وقوية متواثبة تزمجر وتفحّ, مقشعرّة, وصفرتها حريرية ناصعة, تقرقر وتهرّ, مربربة زاكية تزوم, وعيونها تتقد, وتركب بعضها بعضًا, وكأنها, كلها, ستهاجمنا بضراوة. والجدة القليلة الجسم, ملفوفة بروب حريري قديم سابغ عليها, تصوصو بصوت رفيع حاد, آمر وحنون في الوقت نفسه, ممطوط وأغنّ ولا أفهمه, حتى تفيء القطط إلى هدوء نسبي, وتأوي إلى أماكنها المختلفة في شتى أرجاء البيت, وتظل توتو تتحدث إلى جدتها باليونانية, بينما رائحة القطط الحيوانية التي تملأ البيت تفغمني وكأنني أستطعم على لساني كثافتها وخصوبتها. ثم ذهبت تيتة, تتدأدأ في مشيتها بخطواتها الصغيرة, وجاءت ببلح مقشور مصفّى من النوى غارق في عسله ومحشو بالجوز وبالبندق, وأعطت أصابعها الرقيقة الشفافة, عليها عسل مربى البلح, إلى قطة صغيرة جدًّا أخذت تلحسها بنهم وإصرار وهي تصيء.

عندما فتحت توتو باب شقتهم كان الظلام يوشك أن يهبط, والفسحة غامضة وكثيفة بروائحها العبقة الراكدة. أوقدت توتو مصباح الجاز الكبير الأبيض البطن, بعود كبريت جاءت به من المطبخ, في العتمة, وأنا مسمّر جنب الباب, واجف القلب. شدت توتو دلاية كالكمثرى في نهاية سلسلة نحاسية مربوطة بالمصباح, ورفعت زجاجته الشفافة بحرص, وأشعلت الفتيلة بينما هي تمسك بالدلاية طوال الوقت. ردت الزجاجة إلى مكانها, ثم تركت الدلاية فجأة فارتفع المصباح من تلقائه, وفرّت السلسلة النحاسية منسابة من خلال حلقة مثبتة في السقف ولها صوت صرير متتابع.

سطح النور في الفسحة, وظهرت نقوش الملائكة والطيور المرفرفة المخرمة في الستائر الكروشيه المسدلة على النوافذ وعلى الباب, والفوتيّات القطيفة الخضراء المتموجة اللمعة. قفزت إلى فوتيي كبير منها فغاص بي, وهو يقاومني قليلاً بتنجيده الطيع والقوي.

جاءت توتو, دون تردد, وجلست معي في الفوتيي العريض, وأحسست جسمها يلتصق بي.

استدارت إليّ, ونظرت إليّ طويلاً. وقلت لنفسي إنها عزيزة عليّ جدًّا. وفجأة عانقتني. أحسست ذراعيها العاريتين, رفيعتين وقصيرتين, حول عنقي, تحبسان وجهي, وأحسست صدرها الطفلي يهتز. وضعت رأسها خلف وجهي ملتصقًا به, وأحسستها تبكي, بصمت, وإصرار, كأنها لن تفرغ أبدًا, وترفرف بين ذراعي. كنت أحيط خصرها, كأنني ألجأ إليها,

منها, لا أقول شيئًا وكأنني أقول إن بكاءها يهدّ العالم عليّ. حتى سكتت فجأة, واستراحت.

عرفت, بعد ذلك بثلاث أو أربع سنين, عندما تزوج خالي يونان فعلاً, أن أم توتو كانت قد تزوجت, من زمان, بالجزار الذي كنت أرى محله أمام بيتها, وأراه, يقف في المحل المبلط كله بالقيشاني, ساعداه المفتولان قد شمّر عنهما, قويًّا وصدره صخري تنفتح عنه تقويرة الصديري اللامع الكثير الأزرار المحبوك يبدو من الشق الطويل في أعلى جلابيته الواسعة التي جفت عليها نقط الدم المتناثرة, وأنه طلقها بعد أن خلفت كاترينا التي كنا نقول لها توتو. وسمعت خالتي وديدة تحكي لامرأة لم أكن أعرفها, وهي لا تعرف أنني على مسمع, أن الجريجية المقروصة أم توتو كانت لايفة على أخويا يونان, كانت عايزة تلهفه ياختي, وكانت حاتجيبه على ملا وشّه لكن برضو هو كل الطير اللي يتاكل لحمه؟ أخويَا يونان جدع ملْو هدومه, ما يضّحكش عليه بالساهل. أهو رماها زي الكلبة, واتجوز إستِر. وغضبت جدًّا في قلبي لأنني لم أصدق أن أم توتو كانت تضحك على خالي يونان, وكنت أعرف أنها تحبّه, كما تحبّني.

وعندما كنا في كليوباترا, وكنت قد تخرجت من الهندسة, وذهبت إلى معتقلات (أبو قير) وهاكستب والطور وخرجت منها, وكنت أشتغل مهندس ترميم في المتحف اليوناني الروماني بمرتب قدره اثني عشر جنيهًا أعول بها نفسي وأمي وأخواتي الأربعة ولم أكن أقرأ الصحف. وبينما كنت في المتحف, مهمومًا بالشغل ذات يوم سمعت إشاعة أن الجيش في القاهرة قام بحركة ضد الملك, وأن الدبابات في الكورنيش. ولم أهتم يومها كثيرًا بأخطر حَدَثٍ في تاريخنا لفترة طويلة, ولكنني عندما طرد الملك من اسكندرية نزلت في الشوارع مع صاحبي عبد القادر نصر الله وشربنا العرقسوس الذي كان يوزعه البائع عند كوم الدكة مجانًا, ابتهاجًا وتيمنًا بالخلاص. وكنت أحب أيامها حبًّا لا أعرف كيف الخلاص منه ولا كيف الخلوص إليه, وفي آخر المساء عدت إلى بيتنا وكلي قلق وفرح وتوفز. وطُرق باب شقتنا, ودخلت امرأة جميلة ممتلئة مدورة الجسم, بيضاء, غزيرة الشعر, في فستان فقير الشكل تحمل على ذراعها طفلة في الثانية, وراعتني عيناها الخضراوان كأنهما وحشيتان من ضغط القهر, كحيوان. ولم أعرفها, وسلمت عليّ بيد أحسستها مليئة مرتخية كأنها لا تعرفني, وعندما جاءت أمي إلى الباب رحبت بها وأخذتها في حضنها وقالت لها: أهلاً يا توتو يابنتي, أهلاً بيكِ, اتفضلي, إزيك يا ضنايا, إزيك يا ريحة الحبايب. تدهور قلبي وامتلأ وجهي بالدم.

وجلست المرأة الغريبة, مهدودة ومستكينة, وعرفت أنها تزوجت من عامل في الفابريكة (المصنع) اسمه حسن, وأنه كان حشاشًا ومتلافًا, وأنه طلقها بعد أن خلفت بنتها, وأن اسم بنتها فتحية, وأن أمها ماتت من زمان طويل, وأنها تشتغل الآن بياعة في هانو (متجر كبير) وليس لها أحد في الدنيا. وكنت جريحًا وأدركت, متأخرًا جدًّا, ومن غير جدوى, مدى قسوة بكاء الطفلة التي كانت, على كتفي, وأن هذه الطفلة لم تندثر ولن يجف بكاؤها أبدًا.

تزوج خالي يونان وجاءت امرأة خالي إستر إلى بيتنا الذي رأيت شرفته مرة تسقط في ليل الحلم مليئة بالناس لا صوت لهم, أمام مدرسة البنات الداخلية, وإلى جانبها وابور الطحين.

كانت البنات ينمن في الدور الثالث من المدرسة, أعلى من بيتنا. وكانت أنوار المدرسة تطفأ في تمام الساعة التاسعة بالليل, وتصمت الأصوات القليلة المضطربة بعد ذلك, وأصداء ضحكات البنات, ويحل الظلام في المدرسة, وأرى, في نور الغاز المتشعع من عمود الشارع, تكعيبة العنب في حديقة المدرسة, أخشابها واضحة معرقة وسط دغلات أوراقها الكثيفة, وطبقة تراب خفيفة في النور, على أغصان شجر التوت والنبق الوارفة. وكنت أرى البنات أحيانًا, في أول الصبح, عندما أرفع بصري من شرفة بيتنا, وهن يخطرن أمام النوافذ المفتوحة, في قمصان نومهن الخفيفة الملونة, وشعرهن مبلول ومفكوك, ثم يختفين.

كانت امرأة خالي عروسًا جديدة, ولم تخلف بعد, وافرة الجسم, تضحك كثيرًا ودافئة الصوت, وكلّها معابثَة وشيطنة وجرأة حسّية بالكلام والإشارة والنظرات. وجهها كامل الاستدارة وخمريّ جدًّا, عيناها مليئتان. وحاجباها رفيعان جدًّا كقوسين, على جفنين متخمرين قليلاً. وكنت أهرب إليها إذا ضربتني أمي, فتحضنني وتلاعبني وتمسح دموعي في ذيل فستانها, وتقول لأمي: هو الملاك ده برضو له ضرب ياختي! وفي مرة نسيت أن أقفل باب الحمام ورائي, وانفتح الباب فجأة وعندما استدرت مفزوعًا رأيتها على الباب تسدل فستانها على فخذيها المكتنزين السمراوين, بدون اهتمام, وضحكت بصوت عال وقالت وهي تصفق بيديها وعيناها مرحتان لامعتان: هيه.. وشفت الحمامة..! وبعد أن كدت أموت من الخجل ضحكت أنا أيضًا, وكان ذلك بدون أهمية, ولكنه كان سرًّا بيننا.

كان خالي يونان قد حصل على رخصة دولية وسافر إلى إنجلترا مع خالي ناثان يجربان حظهما, وكان يشتغل هناك سائق لوري بالليل, والتحق بمدرسة نقابية بعد الظهر, وعاد واشترى سيارة أجرة مربعة الشكل يسوقها ويكسب ذهبًا. وكان فخورًا بعمله, وانتخب رئيسًا لنقابة سواقي الملاكي والتاكسي والأتوبيس. وكان وفديًّا عندئذ, ثم أصبح صديقًا للبرنس عباس حليم وعمل معه, وكان البرنس شخصيًّا يزوره في النقابة ويخرج معه, في التاكسي, وهو يجلس بجانبه. وكان عندئذ قد رافق أم توتو, ثم تركها. وكان أنيقًا وله مهابة في البيت, ويجيد الكلام ويعرف الإنجليزية.

وسافر مرة إلى جنيف ليحضر مؤتمرًا عماليًّا دوليًّا. وسمعت جدي ساويرس مرة يقول إن ابنه يونان (خطيب يخلب لب السامعين) بينما ناثان قصير ومكير وخباص ولكن قلبه كالحليب. أما سوريال أصغر أخوالي فقال عنه إنه حشاش ولكنه ابن حلال وابن صنعة ويده تصوغ الذهب من الخشب.

كنا في أول الصيف, وكانت الشهادة قد جاءت بالبريد أنني انتقلت إلى السنة الثانية في مدرسة النيل الإبتدائية, وفي الصبح رأيت البنات وأمهاتهن وآباءهن يتزاحمن حول قوائم الناجحات التي عُلّقت على لوحات كبيرة داخل باب المدرسة الحديدي, أمام تكعيبة العنب, وكان الفراشون يحومون حول البنات وآبائهن يتهافتون عليهم بالتبريك والدعوات ويلتقطون الأرزاق التي تُدَسّ في أيديهم. ثم انحسر الاضطراب, وصعدت البنات إلى الدور الثالث استعدادًا للإجازة الصيفية وكنت أرى النوافذ مفتوحة على السراير وقمصان البنات البيضاء مفتوحة قليلاً على صدورهن من الحر.

وفي العصر كان الهواء قد ضعفت حرارته, والنور في الشارع ناعمًا والشمس صفراء. وكان السحاب الأبيض الجامح في السماء بطانته تحمرّ قليلاً وهي تنزلق وتنقلب بسرعة في الزرقة الصحو الصافية. وكنت أقف وحدي في شرفة بيتنا, أحلم بغموض, وأنظر إلى الكركون على جنب بعيدًا وراء دوران الترام, والحجر في حيطانه أسود ومضلع وكثيف, وأمامه الشجر الذي تهتز أغصانه الثقيلة.

والحمام الذي كان يهدل ويشقشق بشدوه المكتوم الرتيب طول الظهر من الحر, قد صمت أخيرًا.

وكان الشارع خاليًا, نظيفًا, أرضه باهتة السواد, والعالم كله هادئ تمامًا.

التفتُّ فجأة إلى مُدرّسة البنات, أمامي, فرأيتها وهي تلقى بنفسها من النافذة, في نور آخر النهار. كان جسمها خفيفًا يتقلب في الهواء كأنها تطير وهي تسقط, جونلتها الزرقاء الداكنة تنحسر عن رجلين تضطربان وتصطدمان كأنهما بلا وزن. وكانت صامتة.

سمعت خبطة الجسم في تكعيبة العنب صدمة جافة, ولها فرقعة مكتومة, وخشخشة الورق, والاحتكاك الصلب, بينما الجسم يثب إلى أعلى وثبة صغيرة من رجع الصدمة, ثم ينقلب ويسقط على بلاط الممر, بصوت ارتطام مسدود, نهائي, كومة متهدلة, ذراعان ملتويتان تحت رأسها, كأنها بلا عظام.

فزع الحمام الذي كان يأوى إلى وكناته الخفية وسط الشجر, وطار يرفرف بأجنحته الطويلة التي مستها حمرة الغروب فاشتعلت, في السماء.

وسمعت على الفور صوت القيء, تشنجات متقبضة ثم انفجار متحشرج, والجسم يهتز على الأرض, الرأس الملتصق بالبلاط يندفع منه سائل لزج ثقيل محمر الرغوة.

ثم الصمت.

لحظة واحدة من الصمت الكامل. التام.

هل كانت صرختي القصيرة, لم أسمعها, هي التي أتت بخالتي سارة وخالتي وديدة وامرأة خالي إستر, كلّهن, يجرين إليّ, أم صرخات البنات التي ارتفعت, مروَّعة, ونداءات المشرفة والفراشين الذين أخذوا يخرجون متلاحقين من باب المدرسة الداخلي؟

كانت على الباب لمّة صغيرة من الناس. جاءت عربة الإسعاف بجرسها المجلجل, ودخل المتطوعان, بالكاب (قبعة) **الأحمر والحلة الصفراء, وحملاها على نقالة وأدخلاها في جوف السيارة التي انطلقت ودقات الجرس السريعة تصلصل بإلحاح.**

لم أترك الشرفة, ولم أتعشّ. أين كانت أمي, وخالتي وديدة وستي أماليا؟

عندما تقدم الليل كانت قريباتي كلهن جالسات على حصيرة في الشرفة, وكنت ملتصقًا بحديد سورها, وكان قلبي موحشًا وعيناي مغلقتين.

نادتني امرأة خالي إستر, من بينهن جميعًا. كان شعرها في الليل عاريًا وقصيرًا وغامض السواد, ووجهها المدور الأسيل السمرة صافيًا في نور الليل الصافي, وكانت عيناها النجلاوان منتفختين قليلاً, وتومضان.

وقالت لي فجأة, بلهفة: يا ضنايا.. مالك؟ تعال.. تعال نم على حجري هنا.

(...)

ذهبت مع أبي, بعدها, إلى شغله في مغازة (مخزن تجاري) **الشيخ شاهين المراغي, في شارع أنسطاسي.**

أراد أن يحتفل بي, فأخذني إلى المصوراتي الذي كان في شارع السبع بنات.

كانت (المغازة) مخزنًا ومحلاً ومكتبًا لبيع وشراء البيض والبصل والسمن البلدي, وتوريدها للخواجات المصدرين أو لتجار الجملة من أولاد البلد. وكنت أعرف أن تجارة أبي قد كسدت, وأنه باعها للشيخ شاهين المراغي ودخل معه شريكًا بالعمل بثلث الأرباح, وكنت أتصوّر أنهم في آخر كل شهر يجمعون النقود الفضة والمعدن, ريالات وأنصاف ريالات وأنصاف فرنكات وقروشا وملاليم, ويقسمونها ثلاثة أقسام يأخذ أبي واحدًا منها, وأحسّ في ذلك ظلمًا غير مفهوم.

كانت المغازة فسيحة ومعتمة ورطبة وأرضها من الأسفلت الأسود وفيها أعمدة حجرية عالية, ورأيت فيها ناسًا غامضين صامتين, بملابس الشيالين الزرقاء وعممهم وطواقيهم, جالسين على خيش (قماش خشن) **مفروش على الأرض, أذرعهم مرمية على ركبهم بتعب, بين أكوام مرصوصة من شوالات البصل لها عبق نفاذ مهاجم, وأقفاص البيض الأبيض يلمع وسط القش الذي تخرج أعواده الرفيعة كشوكٍ هشٍ من بين القضبان الخشبية وتذكّرني برائحة الفراخ. وفي آخر المغازة, في الظلام, تومض صفائح السمن بعضها فوق بعض, شكلها ثقيل وثابت.**

سلّم عليّ الشيخ شاهين, كان له وجه مدوّر غني داكن السمرة, وابتسم لي فغارت عيناه الصغيرتان اللامعتان مدفونتين إلى أعمق في دسم ملامحه, وكانت على رأسه عمامة يلتف حولها شاش ناصع البياض حريري الشكل له شراشيب رفيعة وراء أذنه, وسلم عليّ أيضًا ابنه الشاب الذي نظر إليّ بلا مبالاة, وكان يلبس بدلة صوف إنجليزي مربعات, وكرافتة رفيعة جدًّا محزوقة بإحكام في الياقة البيضاء المنشاة, وعلى رأسه قبعة رمادية كالخواجات, يلفها شريط حريري رمادي أيضًا. وقال لي الشيخ شاهين, ما شاء الله ربنا يطرح فيك البركة يا بني, وتاخد الشهادة, ونبعتك بلاد الإنجليز تكمل علامك زيّ أحمد أفندي ابني كده. ومرت في ذهني صور غامضة لبلاد باردة ينزل فيها الثلج كالمطر وفيها عساكر كثيرون على موتوسكلات ونساؤها مثل أم توتو, ثيابهن قصيرة وشفافة وأجسامهن رقيقة وناعمة. ولكني مع ذلك لم أصفح في قلبي عن الشيخ شاهين ولا عن ابنه.

ولم يكن الشيخ شاهين يعرف القراءة ولا الكتابة, وكان هذا يحيرني جدًّا, وكان أبي هو الذي يكتب ويحسب, وكنت فخورًا به, وكان مكتب أبي كبيرًا, بجانب باب المغازة وعليه دفاتر الحسابات مرصوصة ومفتوحة مجلدة بالأسود وفيها خطوط مموجة بالأزرق والأحمر على حواف الورق السميك وهي مقفلة. وسحرتني مَكَنة نسخ الخطابات والفواتير المكتوبة بالبالوظة البنفسجي, حديدها الغليظ المتين له يد تدار على قائم حلزوني الحلقات, فتنزل الحديدية العلوية المسطحة على الورق الشفاف المبلول بللاً خفيفًا, فوق ورق نشّاف فاتح الحمرة, حتى تنطبق انطباقًا محكمًا على قاعدة المكنة الصلبة الراسخة, وعندما ترتفع الحديدة العلوية تظهر الصورة مقلوبة على الورق الخفيف المبلول.

تسللت ودخلت مكتب الشيخ شاهين, وكان نظيفًا جدًّا وخاليًا وفيه رائحة تراب وهواء محبوس وله مهابة. والنصف العلوي من بابه زجاجي محبّب مبيض وعليه اسم الشيخ شاهين أحمد المراغي, وتحته اسم أبي, وتحتهما تجار البيض والبصل والسمن البلدي بالجملة والقطاعي, كلها بالخط الثلث حروفه قائمة بكبرياء وشموخ, بالأسود والذهب, أقرؤها من الداخل, مقلوبة على الزجاج المبيض.

ونقلت اسم أبي على ورق أبيض, مرة معدولاً ومرة مقلوبًا, وأحسست تحت يدي لدونة الجوخة (قماش مطبوخ) الخضراء على المكتب, مسمّرة بمسامير صفراء غليظة على إطار خشبي لامع مموج وداكن يدور بأطراف المكتب الأربعة, وعندما خرجنا أخذت معي ظرفًا كبيرًا فيه مجموعة من الفواتير والخطابات البيضاء عليها اسم أبي, واستخدمتها بعد ذلك بكثير في كتابة الشعر, أيام الحرب.

في محل المصوّراتي دخلنا إلى الغرفة الداخلية الفسيحة المعتمة, وأضاء الرجل مصابيح كهربائية قوية كثيرة من عدة زوايا, وكان الهدوء ثقيلاً, ووقف أبي, بيده عصاه الأبنوس ذات المقبض العاجي, وفمه مزموم ونظرته متأملة وعميقة وصافية جدًّا, ورفعني المصوّراتي وأجلسني على مائدة عالية صغيرة بجانب أبي. وكنت ألبس قميصي الحرير الأبيض الواسع الياقة والبنطلون القطيفة الأسود الذي له حمالات فيها زراير بيضاء كبيرة, وحذائي الأبيض الجديد الذي له نعل مطاطي رمادي يغوص قليلاً تحت قدمي عندما أمشي, وجوربي الأسود المرفوع مضموم على ساقي وحده ليس فيه أستيك (شريط مطاطي) , ووضعت يدًا على يد, وكان شعري ناعمًا ومفروقًا. وقال لي المصوّراتي أن أنظر في عين الكاميرا الكبيرة المعدنية المحدّبة التي كانت تومض في الأنوار القوية. وكنت مستقرًّا في فراغ الهواء العالي وآمنًا, وأحسست نفسي بعيدًا جدًّا عن الأرض, ولم أكن أخشى السقوط, ولم أكن أخاف من الموت, وكنت أرى رفرفة البنت التي تسقط, وهي تطير, ولا تصل أبدًا إلى تكعيبة العنب الكثة الشرسة تحتها. وكان المصوّراتي يلبس جاكتة قماش سوداء خفيفة على قميص, ولها كم منفوخ مضموم على أعلى ذراعه بحلقة أستيك سميكة, وأدخل رأسه تحت القماشة السوداء التي انسدلت خلف الكاميرا, ووقف بين القوائم الحديدية المثلثة, وسمعناه من تحت خيمته الداكنة يقول لنا بصوت مكتوم: كويس.. كويس.. بصّوا لي هنا في عين المكنة على اليمين شوية.. كويس كده, واحد اتنين تلاتة, خليكوا كده من غير حركة.. وخرج بسرعة, وأزاح غطاء مدورًا من على فتحة العدسة ثم أعاده بصوت صفقةٍ نهائية, وقال: مبروك.

ولما عدنا بالترام في أول الليل, كان الميدان الصغير في آخر شارع راغب باشا خاليًا, ودكان الدخاخني, بمنصته الرخامية الرمادية الطويلة الخارجية في الشارع, مغلقًا. ولكن السينما, التي بُنِيت في عنبر صفيح عريض مثلث السقف وبوابتها شبكة حديدية جرارة, كانت منيرة بعقد طويل من المصابيح الكهربائية مدلى على الباب, يضيء إعلانًا ملونًا فيه حصان أحمر يجري وعليه راعي بقر قبعته عريضة مستديرة زرقاء, باهتة على وجهه الناصع الزرقة, ويرفع سوطًا طويلاً في الهواء, وكنت أتأمل الإعلانات الملونة المصورة على هذه السينما في طريقي للمدرسة كل صباح, وأقرأ عناوين الأفلام وأسماء الأبطال, وأتخيل أحداث الروايات, طويلاً, وما يدور فيها, وأحلم كثيرًا بأن أدخل هذه السينما. ولم أدخلها أبدًا.

رأيت أنني أسير إلى كوم الدكة, وفي الطريق ذهبت إلى الجنينة الواسعة التي تقع على المحمودية والتي كنت أشتري منها, الآن وأنا صغير, الخس والجرجير والبصل الأخضر والكرات والملوخية والكرفس والبقدونس والخبيزى والفجل والسلق للقلقاس, وفي كل مرة أسير إليها متمهلاً, متأملاً, أمرّ بسياج خشبي عالٍ فيه ثغرات طويلة بين ألواح الخشب, أضع عليها عيني ولا أكاد أرى وراءه أسرار هذا المبنى الغامض البعيد الشاحب البياض, وله أعمدة مدورة وشبابيك طويلة, ولا أكاد أرى حديقته الواسعة, معتمة بأشجار وارفة أثيثة الأغصان متشابكة وكأنها وحشية. وأقول لنفسي كَمْ من الأسرار وراء كَمْ من الأسوار حدستها ولم أعرفها أبدًا, وشدّ ما أحِنّ إلى معرفتها, موقنًا أنني لن أعرفها أبدًا وأن الشوق سيظل مع ذلك أبدًا, في روحي, برعمًا خامًا مزدحمًا بعصارته الكثيفة وجائعًا إلى التفتق والازدهار.

دخلت جنينة الخضار من باب خشبي مفتوح دائمًا مخلوع المفصلات, وأحسست بالأرض كاملة ترفّ بأنواع الخضرة منها القصيرة اليانعة والفارهة الطول, والداكنة والملتفة, والرقيقة والمكاثفة, والمرهفة السنان كأنها شفافة, أمُرّ على مدقّ ترابي ضيق من تحت تعريشة العنب المورقة القائمة على أعمدة من خشب التفّت بها أغصان الكروم الملتوية ذات العُقَد الخشنة, وأسمع الحمام يزقو ويهدل بترجيع رتيب الإيقاع, مختبئًا في الشجر الكثيف الداكن الورق, لا ينتهي إيقاع ترتيله وليس لشجوه انقضاء. وأنفذ من جانب البقرة التي تدور بالساقية في وسط الجنينة, ببطء وإصرار, مغماة العينين, تجترّ وينزل اللعاب من خطمها في خيوط فضية طويلة, وأسير على المسْقى الطويلة التي يتسلسل فيها الماء من الساقية على القاع الرملي الطيني الصلب الفاتح اللون, يترقرق, وتضوء الشمس على مويجاته المنسربة بخرير موسيقي تفتح أبواب القلب في الهواء الطلق النقي العبق برائحة الخضر وروث البقرة والسباخ (السماد) البلدي والنعناع والريحان معًا.

خرج إليّ الفلاح القصير المدكوك الجسم من خصه (كوحه) الطيني والضيق كأنه يطلع من تحت الأرض, وجهه مجدور وعميق الغضون ومحروق, ويده قصيرة الأصابع خشنة. حَشَّ لي الخضار بمنجل صغير مقوس وحاد السن, وأحسست مدى رهافة حركته ورقتها وحنوها وكفاءتها في وقت معًا.

وأحسست أن في جسم هذا الرجل جدّي ساويرس وأبي وأولاد عمتي بقطر ورفلة, وأخوالي الثلاثة يونان وناثان وسوريال, وأن نظرتهم جميعًا, معًا, في عينيه الغائرتين الثاقبتين, وأنني لا انفصل عنه ولا

عنهم, وأن في يديه تربة قلبي الملوثة الغمقة المعجونة بالطين لا تجفّ أبدًا, وأن هذه الجنينة هي بستان ألف ليلة وليلة المسحور الذي طالما التقى فيه المحبّون خفيةً وعرفوا - كما عرفت - من فنون العشق ما لم يعرفه من قبل بشر.

ورأيت أنني صعدت إلى أعلى تلة كوم الدكة القديمة, وقد جلا عنها الجنود الإنجليز سرًّا في الليل, ولأول مرة منذ وعيت لم يكن اليونيون جاك (العلم البريطاني) **يرفرف على ذروة التلة, وكنت أعرف مع ذلك بغموض أن (كوم الدكة) القديمة قد أزيل وحلت محله ساحة مسفلتة** (مرصوفة بالأسفلت) **ومبانٍ حكومية, وأننا كنا ننطلق في جماهيرنا الغفيرة, منذ الصباح الباكر, نرتفع على طرقات (كوم الدكة) الخالية التي كانت محرمة علينا وقد أصبحت في هذا الصبح حلالاً, جماعات جماعات, أصوات هتافاتنا مبحوحة في الهواء النقي: الجلاء الجلاء, يسقط الاستعمار, يسقط الاستغلال. وكانت عنابر الجنود الإنجليز خاوية على عروشها, ولم يتحرك الجيش المرابط لاحتلالها بعد, ودخلناها ورنّت أصداء أحذيتنا في فراغ حيطانها, وكان بلاط أرضها متربًا قليلاً وعليه قصاصات ورق ممزقة قليلة وبقايا القش, وكأنّ اليوم عيد, وجماعات المتظاهرين كأنهم يرقصون رقصات جماعية, يشورون ويهتفون وينشدون من الفرح.**

وكانت الأشجار القصيرة المشذبة على جانبي الممرات الترابية كأنها رؤوس خضراء مشعثة مطموسة العيون في الجدائل الخشبية الغليظة المورقة بدغلات من الأغصان كثيفة جعدة منذرة ومهددة وشرسة, وعندما طوّفنا بكل أنحاء القلعة المهجورة الموحشة, ونزلنا, وجدنا جنود (بلوك النظام) صفوفًا متراصة تحت سفح (كوم الدكة), وفي أيديهم دروعهم الخشبية الخضراء القاتمة, على رؤوسهم خوذات حديدية صدئة, ركبهم مدورة سوداء بارزة تحت الشورتات الكاكي الطويلة, وشرائط الألشين (شريط من القماش يلف على ساق الشرطي) **تلتف بسيقانهم النحيلة حتى تغيب تحت الأحذية الميري الضخمة المتربة بجلدها الخشن المقبب. وانتظمت الجموع بقيادة صديقي عبد القادر نصر الله الذي كان ما زال في كلية الطب بينما كنت قد تخرجت سنتها من كلية الهندسة, وكان قد انضم إلى جماعتنا الثورية الصغيرة. ورأيت على جانبي شارع النبي دانيال جثث الأطفال المرمية هامدة, حمراء لها قشرة لامعة, كأنها جنبري مسلوق ضخم, أيديها وأرجلها ثلاثية الأصابع مبتورة ومتورمة ومدورة وحول رؤوسها غلاف صدفي شفاف تحدق من وراء زجاجه عيونها المفتوحة المتهمة, وكانت المظاهرة تشق طريقها, مع ذلك, بحرص, بين صفي الجثث الطفلية تحاذر أن تمسها. وعندما وصلنا إلى واجهة كأنها بوابة فندق منيف, ناطحة سحاب, ألواحها زجاجية مدخنة شاسعة, تقطعها أعمدة الألمونيوم المصقولة, هجم جنود بلوك النظام فجأة دون إنذار, وسمعنا في الوقت نفسه فرقعات الرصاص في الهواء كأنها غير جدية لا تحمل خطرًا, آتية من نوافذ البناية الزجاجية الشاهقة, ورأيت الناس يسقطون بصمت, مضروبين بالرصاص, وتمر عليهم الأقدام المتلاحقة, والناس قد انطلقت تجري في كل اتجاه, وكانت موجة الناس تصعد وتهبط, ورأيت الأجسام التي أمسكت بها النار تلقى من النوافذ العالية, وتتقلب في الهواء, وتسقط بعيدًا في البحر, وكانت الرؤوس تطفو فوق الأمواج مفتوحة الأفواه بصرخة لن تصمت أبدًا, ورأيت وجهها الذي أحبه, ويرودني في حلم مستمر, يسبح في مياه حبي التي لا تغيض, ساطعًا بسمرته الخمرية وسط زبَد الرؤوس المتلاطم من غير صوت, وأحسست الطعنة في قلبي من عينيها الواسعتين بموجها المخضرِّ الثبَج, وسقطتُ في الغمْر, ولما أفقتُ كانت الطعنة ما زالت**

تغوص في عمقي الذي ينصهر ويتّقد ويفيض حممًا كالبحار الوحشية
الجموح تنسكب متوهجة تئجّ باللظى وتُغرق جسمي في ضرام اللهب,
وأحسست أجنحة الحمام المشتعل بوهيج النار ترفرف حولي وتصعد بي,
في زرقة السماء الصحو الناعمة, محترقًا من غير انتهاء

إدوار الخرّاط

القاهرة - الجمعة الكبيرة

4 برمودة 1701 / 12 إبريل 1985